كتاب الإيمان الأوسط

لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية

والذي يقع في مجموع الفتاوى (7/461-640)

مع بقية مسائل الإيمان الموجودة في آخر الجزء السابع

قال الشيخ العالم العامل الورع الناسك ؛ شيخ الإسلام بقية السلف الكرام " أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الشامي - رحمه الله -:

تضمن حديث سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن " الإسلام " و " الإيمان " و " الإحسان " ؛ وجوابه عن ذلك وقوله في آخر الحديث: {هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم}. فجعل هذا كله من الدين. وللناس في " الإسلام " و " الإيمان " من الكلام الكثير: مختلفين تارة ومتفقين أخرى. ما يحتاج الناس معه إلى معرفة الحق في ذلك ؛ وهذا يكون بأن تبين الأصول المعلومة المتفق عليها. ثم بذلك يتوصل إلى معرفة الحقيقة المتنازع فيها ؛ فنقول: ما علم [بـ] الكتاب والسنة والإجماع وهو من المنقول نقلا متواترا عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل هو من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام - دين النبي صلى الله عليه وسلم - أن الناس كانوا على عهده بالمدينة " ثلاثة أصناف ": مؤمن , وكافر مظهر للكفر , ومنافق ظاهره الإسلام وهو في الباطن كافر. ولهذا التقسيم أنزل الله في أول سورة البقرة ذكر الأصناف الثلاثة فأنزل أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين. وبضع عشرة آية في صفة المنافقين. فقوله تعالى: {هدى للمتقين} {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون} {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون}: في صفة المؤمنين. وقوله: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} الآيتين: في صفة الكفار الذين يموتون كفارا. وقوله: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}. الآيات في صفة المنافقين ؛ إلى أن ضرب لهم مثلين: أحدهما بالنار , والآخر بالماء ؛ كما ضرب المثل بهذين للمؤمنين في قوله تعالى: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} الآية. وأما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن أو كافر لم يكن هناك منافق فإن المسلمين كانوا مستضعفين فكان من آمن آمن باطنا

وظاهرا , ومن لم يؤمن فهو كـافر. فلما هـاجر النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى المدينة وصـار للمؤمـنين بها عز وأنصـار ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعا واختيـارا: كـان بينهم من أقـاربهم ومن غـير أقـاربهم من أظهر الإسـلام موافقة رهبة أو رغبة وهو في الباطن كافر. وكان رأس هـؤلاء عبد الله بن أبي ابن سـلول وقد نـزل فيه وفي أمثاله من المنـافقين آيـات. والقـرآن يـذكر المؤمـنين والمنـافقين في غـير موضع كما ذكـرهم في سـورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحـزاب. وكـان هـؤلاء في أهل المدينة والبادية كما قـال تعـالى: {وممن حـولكم من الأعـراب منـافقون ومن أهل المدينة مـردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم}. وكان في المنـافقين من هو في الأصل من المشركين وفيهم من هو في الأصل من أهل الكتاب. وسـورة الفتح والقتـال والحديد والمجادلة والحشر والمنـافقين. بل عامة السور المدنية: يذكر فيها المنافقين. قـال تعـالى في سـورة آل عمران: {يا أيها الذين آمنـوا لا تكونـوا كالـذين كفـروا وقـالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غـزى لو كـانوا عنـدنا ما مـاتوا وما قتلـوا} إلى قولـه: {وليعلم الـذين نـافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعـوا} الآيـات. وقـال فيها أيضـا: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يـألونكم خبـالا ودوا ما عنتم} إلى قولـه: {وإذا لقـوكم قـالوا آمنا وإذا خلـوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتـوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور} {إن تمسسكم حسـنة تسـؤهم وإن تصـبكم سـيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملـون محيـط}. وقـال تعـالى في سـورة النسـاء: {ألم تر إلى الـذين يزعمـون أنهم آمنـوا بما أنـزل إليك وما أنـزل من قبلك يريـدون أن يتحـاكموا إلى الطـاغوت وقد أمـروا أن يكفـروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسـول رأيت المنـافقين يصـدون عنك صـدودا} إلى قولـه: {فلا وربك لا يؤمنـون حـتى يحكمـوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضـيت ويسـلموا تسليما} وقال: {فما لكم في المنافقين فئـتين والله أركسـهم بما كسـبوا أتريـدون أن تهـدوا من أضل الله ومن يضـلل الله فلن تجد له سبيلا} {ودوا لو تكفـرون كما كفـروا فتكونـون سـواء فلا تتخـذوا منهم أوليـاء حـتى يهـاجروا في سـبيل الله فـإن تولـوا فخـذوهم واقتلـوهم حيث وجـدتموهم ولا تتخـذوا منهم وليا ولا نصيرا} {إلا الذين يصلون إلى قـوم بينكم وبينهم ميثـاق} الآيـات. وقـال: {بشر المنـافقين بـأن لهم عـذابا أليمـا} {الـذين يتخـذون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا} إلى قوله: {إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا} {الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم} إلى قوله: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} إلى قوله: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا} {إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما}. وقال تعالى في سورة المائدة: {يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك} وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم} إلى قوله: {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين} {ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}. وقال تعالى: {وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون} {وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} وقال تعالى: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} إلى قوله: {ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون} {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون}. وأما سورة " براءة " فأكثرها في وصف المنافقين وذمهم ولهذا سميت: الفاضحة والمبعثرة وهي نزلت عام تبوك. وكانت تبوك سنة تسع من الهجرة وكانت غزوة تبوك آخر مغازي النبي صلى الله عليه وسلم التي غزاها بنفسه. وتميز فيها من المنافقين من تميز. فذكر الله من صفاتهم ما ذكره في هذه السورة. وقد قال تعالى في سورة النور: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين} إلى قوله:

{إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولـوا سـمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحـون} الآيـات. وقـال تعـالى في سـورة العنكبـوت: {ومن النـاس من يقـول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جـاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بـأعلم بما في صـدور العالمين} {وليعلمن الله الـذين آمنـوا وليعلمن المنـافقين}. وقـال تعـالى في سـورة الأحـزاب: {يا أيها النـبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما} وذكر فيه شـأنهم في الأحزاب. وذكر من أقوال المنافقين وجبنهم وهلعهم كما قـال تعالى: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مـرض ما وعـدنا الله ورسوله إلا غرورا} إلى قولـه {قد يعلم الله المعوقين منكم والقـائلين لإخـوانهم هلم إلينا ولا يـأتون البـأس إلا قليلا} {أشـحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تـدور أعينهم كالـذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسـنة حـداد أشـحة على الخـير أولئك لم يؤمنـوا فأحبط الله أعمـالهم وكـان ذلك على الله يسـيرا} {يحسـبون الأحـزاب لم يـذهبوا وإن يـأت الأحزاب يودوا لو أنهم بـادون في الأعـراب يسـألون عن أنبـائكم ولو كـانوا فيكم ما قـاتلوا إلا قليلا} وقـال تعـالى: {لئن لم ينته المنـافقون والـذين في قلـوبهم مـرض والمرجفـون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} {ملعونين أينما ثقفـوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} إلى قولـه: {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمـنين والمؤمنـات}. وقـال تعـالى في سـورة القتـال: {أم حسب الـذين في قلـوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم} {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمـالكم} إلى ما في السـورة من نحو ذلـك. وقـال تعـالى في سـورة الفتح: {هو الـذي أنـزل السـكينة في قلـوب المؤمـنين لـيزدادوا إيمانا مع إيمـانهم ولله جنـود السـماوات والأرض وكـان الله عليما حكيمـا} {ليـدخل المؤمـنين والمؤمنـات جنـات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها ويكفر عنهم سـيئاتهم وكـان ذلك عند الله فـوزا عظيما} {ويعذب المنـافقين والمنافقـات والمشـركين والمشـركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السـوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} وقـال تعـالى في سـورة الحديد: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نـورهم بين أيـديهم وبأيمانهم بشـراكم اليـوم جنـات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها ذلك هو الفـوز العظيم} {يـوم يقـول المنـافقون والمنافقـات للـذين آمنـوا انظرونا نقتبس من نـوركم قيل ارجعـوا وراءكم

فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور} {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم}. وقال في سورة المجادلة: {ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله}. إلى قوله: {ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون} {أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون} {اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين} إلى آخر السورة. وقوله: {ما هم منكم ولا منهم} كقوله: {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء} وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة}. وقال تعالى: {ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون} {لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون} {لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله} الآية. وقد ذكر في سورة المنافقين في قوله: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} إلى آخر السورة. و (المقصود) بيان كثرة ما في القرآن من ذكر المنافقين وأوصافهم. و " المنافقون " هم في الظاهر مسلمون وقد كان المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: يلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة لا سيما في آخر الأمر ما لم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لعز الإسلام وظهوره إذ ذاك بالحجة والسيف تحقيقا لقوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} ولهذا قال حذيفة بن اليمان: - وكان من أعلم الصحابة بصفات المنافقين وأعيانهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أسر إليه عام تبوك أسماء جماعة من المنافقين بأعيانهم فلهذا كان يقال: هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره. ويروى أن عمر بن الخطاب لم يكن يصلي على أحد حتى يصلي عليه حذيفة ؛ لئلا يكون من المنافقين الذين نهي عن الصلاة عليهم. قال حذيفة رضي الله عنه - النفاق اليوم أكثر منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية: كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يسرونه واليوم يظهرونه - وذكر البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم يصلون ويزكون وأنه لا يقبل ذلك منهم. وقال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا}. وقال تعالى: {قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين} {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون} وقد كانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم مغازيه كما شهد عبد الله بن أبي ابن سلول وغيره من المنافقين " الغزوة " التي قال فيها عبد الله بن أبي: {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل}. وأخبر بذلك زيد بن أرقم النبي صلى الله عليه وسلم وكذبه قوم حتى أنزل الله القرآن بتصديقه. والمقصود أن الناس ينقسمون في الحقيقة إلى: " مؤمن " و " منافق " كافر في الباطن مع كونه مسلما في الظاهر وإلى كافر باطنا وظاهرا. ولما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ " الزنديق " وشاعت في لسان الفقهاء وتكلم الناس في الزنديق: هل تقبل توبته ؟ في الظاهر: إذا عرف بالزندقة ودفع إلى ولي الأمر قبل توبته فمذهب مالك وأحمد في أشهر الروايتين عنه وطائفة من أصحاب الشافعي وهو أحد القولين في مذهب أبي حنيفة: أن توبته لا تقبل. والمشهور من مذهب الشافعي: قبولها كالرواية الأخرى عن أحمد وهو القول الآخر في مذهب أبي حنيفة ومنهم من فصل. والمقصود هنا: أن " الزنديق " في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره سواء أبطن دينا من الأديان: كدين اليهود والنصارى أو غيرهم. أو كان معطلا جاحدا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة. ومن الناس من يقول: " الزنديق " هو الجاحد المعطل. وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس ؛ ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه: هو الأول ؛ لأن مقصودهم هو التميز بين الكافر وغير الكافر والمرتد وغير المرتد ومن أظهر ذلك أو أسره. وهذا الحكم يشترك فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة فإن الله أخبر بزيادة الكفر كما أخبر بزيادة الإيمان بقوله: {إنما النسيء زيادة في الكفر} وتارك الصلاة وغيرها من الأركان أو مرتكبي الكبائر كما أخبر

بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخـرة بقولــه: {الـذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب}. فهذا " أصل " ينبغي معرفته فإنه مهم في هـذا البـاب. فـإن كثـيرا ممن تكلم في " مسـائل الإيمــان والكفر " - لتكفـير أهل الأهــواء - لم يلحظوا هذا الباب ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة والإجمـاع المعلـوم ؛ بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. ومن تـدبر هـذا علم أن كثيرا من أهل الأهـواء والبـدع: قد يكـون مؤمنا مخطئا جـاهلا ضالا عن بعض ما جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وقد يكون منافقا زنديقا يظهر خلاف ما يبطن. وهنا " أصل آخر " وهو أنه قد جــاء في الكتــاب والســنة وصف أقــوام بالإســلام دون الإيمـان. فقـال تعـالى: {قـالت الأعـراب آمنا قل لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسـلمنا ولما يـدخل الإيمـان في قلـوبكم وإن تطيعـوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمـالكم شـيئا إن الله غفـور رحيم} وقـال تعــالى في قصة قــــوم لــــوط: {فأخرجنا من كـــان فيها من المؤمـنين} {فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسـلمين} وقد ظن طائفة من النــاس أن هــذه الآية تقتضي أن مسـمى الإيمــان والإسـلام واحـد. وعارضـوا بين الآيـتين ؛ وليس كـذلك ؛ بل هـذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخـبر أنه أخـرج من كـان فيها مؤمنا وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسـلمين. وذلك لأن امـرأة لوط كـانت في أهل الـبيت الموجـودين ولم تكن من المخـرجين الذين نجوا ؛ بل كانت من الغابرين البـاقين في العـذاب وكـانت في الظـــاهر مع زوجها على دينه وفي البـــاطن مع قومها على دينهم خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه. كما قال الله تعـالى فيها: {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامـرأة لـوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهمـا}. وكـانت خيانتهما لهما في الـدين لا في الفـراش. فإنه ما بغت امـرأة نـبي قط ؛ إذ " نكاح الكافرة " قد يجـوز في بعض الشـرائع ويجـوز في شـريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات وأما " نكاح البغي " فهو: دياثــة. وقد صان الله النبي عن أن يكون ديوثا. ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء: بتحريم نكاح البغي حتى تتوب. و (المقصود) أن امـرأة لـوط لم تكن مؤمنة ولم تكن من النـاجين المخـرجين فلم تــدخل في قولـــه: {فأخرجنا من كــان فيها من المؤمــنين} وكـانت من أهل الـبيت المسـلمين وممن وجد فيه ولهـذا قـال تعـالى: {فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسـلمين}. وبهـذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما أخبر بـالإخراج وذكر الإسـلام لما أخـــبر بـــالوجود. وأيضا فقد قـــال تعـــالى: {إن المســـلمين

والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} ففرق بين هذا وهذا. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن. و " أيضا " فقد ثبت في الصحيحين {عن سعد بن أبي وقاص قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا ولم يعط رجلا. فقلت: يا رسول الله أعطيت فلانا وتركت فلانا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ؟ قال: ثم غلبني ما أجد فقلت: يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم ؟ مرتين أو ثلاثا وذكر في تمام الحديث أنه يعطي رجالا ويدع من هو أحب إليه منهم ؛ خشية أن يكبهم الله في النار على مناخرهم}. قال الزهري: فكانوا يرون أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل فأجاب سعدا بجوابين " أحدهما ": أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلما لا مؤمنا. " الثاني ": إن كان مؤمنا وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطي من هو أضعف إيمانا ؛ لئلا يحمله الحرمان على الردة فيكبه الله في النار على وجهه. وهذا من إعطاء المؤلفة قلوبهم. وحينئذ فهؤلاء الذين أثبت لهم القرآن والسنة الإسلام ؛ دون الإيمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن ؟ أم يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان ؟ هذا مما تنازع فيه أهل العلم على اختلاف أصنافهم. فقالت طائفة من أهل الحديث والكلام وغيرهم: بل هم المنافقون الذين استسلموا وانقادوا في الظاهر ولم يدخل إلى قلوبهم شيء من الإيمان. وأصحاب هذا القول قد يقولون الإسلام المقبول هو الإيمان ؛ ولكن هؤلاء أسلموا ظاهرا لا باطنا فلم يكونوا مسلمين في الباطن ولم يكونوا مؤمنين. وقالوا: إن الله سبحانه يقول: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}. بيانه كل مسلم مؤمن فما ليس من الإسلام فليس مقبولا يوجب أن يكون الإيمان منه. وهؤلاء يقولون: كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن إذا كان مسلما في الباطن. وأما الكافر المنافق في الباطن فإنه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب باتفاق المسلمين. ولا يسمون بمؤمنين عند أحد من سلف الأمة وأئمتها ولا عند أحد من طوائف المسلمين. إلا عند طائفة من المرجئة وهم الكرامية الذين قالوا إن الإيمان هو مجرد التصديق في الظاهر. فإذا فعل ذلك: كان مؤمنا وإن كان مكذبا في الباطن وسلموا أنه معذب مخلد في الآخرة. فنازعوا في اسمه لا في حكمه. ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة وهو غلط عليهم. ومع هذا فتسميتهم له مؤمنا: بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية دون سائر مقالاتهم. قال الجمهور من السلف والخلف: بل هؤلاء الذين وصفوا بالإسلام

دون الإيمــان قد لا يكونــون كفــارا في البــاطن بل معهم بعض الإسلام المقبول. وهؤلاء يقولـون: الإسـلام أوسع من الإيمـان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا. ويقولون: في {قــول النــبي صلى الله عليه وسلم: لا يزني الزاني حين يزني وهو مــؤمن ولا يسـرق السـارق - حين يسـرق - وهو مـؤمن ولا يشـرب الخمر - حين يشــربها - وهو مــؤمن} إنه يخــرج من الإيمـان إلى الإســلام ودوروا للإسـلام دارة ودوروا للإيمـان دارة أصـغر منها في جوفها وقــالوا: إذا زنى خــرج من الإيمــان إلى الإســلام ولا يخرجه من الإسلام إلى الكفر. ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال: {قالت الأعــراب آمنا قل لم تؤمنــوا ولكن قولــوا أســلمنا ولما يــدخل الإيمــان في قلــوبكم وإن تطيعــوا الله ورســوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم} {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورســوله ثم لم يرتــابوا وجاهــدوا بــأموالهم وأنفســهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} {قل أتعلمون الله بــدينكم والله يعلم ما في الســماوات وما في الأرض والله بكل شــيء عليم} {يمنــون عليك أن أســلموا قل لا تمنــوا علي إســلامكم بل الله يمن عليكم أن هــداكم للإيمــان إن كنتم صــادقين}. فقد قــال تعـالى: {لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسـلمنا ولما يـدخل الإيمـان في قلــوبكم} وهــذا الحــرف - أي (لمــا) - ينفى به ما قــرب وجــوده وانتظر وجــوده ولم يوجد بعــد. فيقــول لمن ينتظر غائبا أي " لما ". ويقــول قد جــاء لما يجئ بعــد. فلما قــالوا: {آمنــا} قيــل: {لم تؤمنوا} بعد بل الإيمان مرجو منتظر منهم. ثم قال: {وإن تطيعــوا الله ورسوله لا يلتكم} أي: لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة (شــيئا أي: في هــذه الحــال ؛ فإنه لو أرادوا طاعة الله ورســوله بعد دخــول الإيمــان في قلــوبهم لم يكن في ذلك فائــدة لهم ولا لغـيرهم ؛ إذ كـان من المعلـوم أن المؤمـنين يثـابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقـرين بـه. فـإذا قيل لهم: المطـاع يثـاب والمـراد به المـؤمن الـذي يعـرف أنه مـؤمن لم يكن فيه فائـدة جديدة. و " أيضا " فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد أخبر عنهم: لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم: {وإن تطيعوا الله ورســوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا} ؛ فلو لم يكونوا في هذه الحـال مثـابين على طاعة الله ورسـوله لكـان خلاف مـدلول الخطـاب فـبين ذلك أنه وصف المؤمـنين الـذين أخــرج هــؤلاء منهم فقــال تعــالى: {إنما المؤمنــون الــذين آمنــوا بالله ورســوله ثم لم يرتــابوا وجاهــدوا بــأموالهم وأنفسـهم في سـبيل الله أولئك هم الصـادقون} وهــذا نعت محقق الإيمــان ؛ لا نعت من معه مثقــال ذرة من إيمــان كما في قولـه تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت

قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون} {الـذين يقيمـون الصـلاة ومما رزقنـاهم ينفقـون} {أولئك هم المؤمنون حقـا} وقولـه تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يسـتأذنوه إن الـذين يسـتأذنونك أولئك الـذين يؤمنـون بالله ورسـوله} ومنه قولـه صـلى الله عليه وسـلم: {لا يـزني الـزاني حين يـزني وهو مـؤمن}. وأمثـال ذلـك. فـدل البيـان على أن الإيمـان المنفي عن هؤلاء الأعراب: هو هذا الإيمان الـذي نفي عن فسـاق أهل القبلة الذين لا يخلدون في النـار بل قد يكـون مع أحـدهم مثقـال ذرة من إيمان ونفي هـذا الإيمـان لا يقتضي ثبـوت الكفر الـذي يخلد صاحبه في النار. وبتحقق " هذا المقام " يـزول الاشـتباه في هـذا الموضع ويعلم أن في المسـلمين قسـما ليس هو منافقا محضا في الدرك الأسفل من النار وليس هو من المؤمـنين الـذين قيل فيهم: {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسـوله ثم لم يرتـابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}. ولا من الـذين قيل فيهم: {أولئك هم المؤمنـون حقـا} فلا هم منافقون ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقا ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب. بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ومعه من الإيمـان ما لا يخلد معه في النـار وله من الكبـائر ما يسـتوجب دخـول النـار. وهـذا القسم قد يسـميه بعض النـاس: الفاسق الملي وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه. والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسـائل " أصـول الـدين ". فنقول: لما قتل أمير المؤمـنين عثمـان بن عفـان وسـار علي بن أبي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يـوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور: خرجت (الخـوارج المـارقون على الطائفتين جميعا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بهم وذكر حكمهم قـال الإمـام أحمـد: صح الحـديث في الخـوارج من عشـرة أوجه وهـذه العشـرة أخرجها مسـلم في صـحيحه موافقة لأحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه أخـر. ومن أصح حـديثهم حـديث علي بن أبي طـالب وأبي سـعيد الخـدري ففي الصـحيحين {عن علي بن أبي طـالب أنه قـال: إذا حـدثتكم عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـديثا فوالله لأن أخر من السـماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكـذب عليه وإن حـدثتكم فيما بيـني وبينكم فـإن الحـرب خدعة وإني سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول: سـيخرج قـوم في آخر الزمـان أحـداث الأسـنان سـفهاء الأحلام يقولون من خـير قـول البرية لا يجـاوز إيمـانهم حنـاجرهم

يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتمـوهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة}. وفي الصحيحين {عن أبي سـعيد قـال: بعث علي بن أبي طـالب إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم من اليمن بذهيبة في أدم مقروض لم تحصل من ترابها فقال: فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من أصحابه كنا أحق بهذا من هـؤلاء قـال: فبلغ ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: ألا تـأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صـباحا ومسـاء قـال: فقـام رجل غـائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلـوق الـرأس مشـمر الإزار فقـال: يا رسـول الله اتق الله فقـال: ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قـال: ثم ولى الرجل فقـال خالد بن الوليد يا رسـول الله ألا أضـرب عنقه ؟ فقـال: لا: لعله أن يكون يصلي قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلـوب النـاس ؛ ولا أشق بطـونهم قـال ثم نظر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قـال: أظنه قـال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عـاد}. اللفظ لمسـلم. ولمسـلم في بعض الطـرق عن أبي سـعيد {أن النـبي صلى الله عليه وسـلم ذكر قوما يكونـون في أمته يخرجـون في فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم أدنى الطـائفتين إلى الحـق} قـال أبو سـعيد: أنتم قتلتموهم يا أهل العراق وفي لفظ له: {تقتلهم أقـرب الطـائفتين إلى الحـق} وهـذا الحـديث مع ما ثبت في الصـحيح {عن أبي بكرة أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال للحسن بن علي: إن ابـني هـذا سـيد وسيصـلح الله به بين طـائفتين عظيمـتين من المؤمـنين} فـبين أن كلا الطـائفتين كـانت مؤمنة وأن اصـطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سـبحانه ورسـوله صـلى الله عليه وسـلم من اقتتالهما وأن اقتتالهما وإن لم يكن مـأمورا به فعلي بن أبي طـالب وأصـحابه أقـرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتـال الخـوارج مما أمر به صـلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمـة. وهـؤلاء الخـوارج لهم أسماء يقال لهم: " الحرورية " لأنهم خرجـوا بمكـان يقـال له حـروراء ويقـال لهم (أهل النهـروان: لأن عليا قـاتلهم هنـاك ومن أصنافهم " الإباضية " أتباع عبد الله بن إباض و " الأزارقة " أتباع نافع بن الأزرق و " النجدات " أصحاب نجـدة الحـروري. وهم أول من كفر أهل القبلة بالـذنوب بل بما يرونه هم من الـذنوب

واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " وكفروا علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن أبي طالب مستحلين لقتله قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة ؛ فقال هؤلاء: ما الناس إلا مؤمن أو كافر ؛ والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات ؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر ؛ مخلد في النار. ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا: إن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا. ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من بدل دينه فاقتلوه}. وقال {لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام وزنى بعد إحصان أو قتل نفس يقتل بها} وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما , وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري وغيره: {أن رجلا كان يشرب الخمر وكان اسمه عبد الله حمارا وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وكان كلما أتي به إليه جلده فأتي به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله} فنهى عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما. وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب في " الثالثة " و " الرابعة " منسوخ ؛ لأن هذا أتى به ثلاث مرات وقد أعيا الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ؛ ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال: يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك فإن ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا في أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين ؛ بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى اجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فإنه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال: قتله في الرابعة من هذا الباب. و " أيضا " فإن الله - سبحانه - قال: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا

التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}. فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالإصلاح بينهم. فلما شاع في الأمة أمر " الخوارج " تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم في العامة ؛ فجاءت بعدهم " المعتزلة " - الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم: عمرو بن عبيد , وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما - فقالوا: أهل الكبائر مخلدون في النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا ؛ بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين. وأنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها. قالوا: ما الناس إلا رجلان: سعيد لا يعذب أو شقي لا ينعم , والشقي نوعان: كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا. وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخوارج. فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد في النار لاستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد ؛ فإن هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق. وقد قال تعالى في كتابه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيئته. ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب ؛ فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره. كما قال سبحانه في الآية الأخرى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق. وقال تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير} {جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير} {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور} {الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}. فقد قسم سبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها " ثلاثة أصناف ": ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل: " الإسلام " و " الإيمان " و " الإحسان ". كما سنذكره " إن شاء الله ". ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد به

من اجتنب الكبـائر والتـائب من جميع الـذنوب فـذلك مقتصد أو ســابق فإنه ليس أحد من بــني آدم يخلو عن ذنب ؛ لكن من تاب كـان مقتصـدا أو سـابقا ؛ كـذلك من اجتنب الكبـائر كفـرت عنه السيئات ؛ كما قال تعالى: {إن تجتنبوا كبـائر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعــود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا ؛ فإن النـبي صـلى الله عليه وسلم ذكر: أن ما يصـيب المـؤمن في الـدنيا من المصـائب مما يجزئ به ويكفر عنه خطايـاه كما في الصـحيحين عنه صـلى الله عليه وســلم أنه قــال: {ما يصــيب المــؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشـوكة يشـاكها إلا كفر الله بها من خطايـاه} وفي المســند وغـيره أنه {لما نـزلت هذه الآية: {من يعمل سوءا يجز به} قال أبو بكر: يا رسـول الله جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال: يا أبا بكر ألست تنصب ؟ ألست تحــزن ؟ ألست تصــيبك اللأواء ؟ فــذلك مما تجـزون بـه}. و " أيضا " فقد تـواترت الأحـاديث عن النبي صـلى الله عليه وســلم في أنه يخــرج أقــوام من النـار بعد ما دخلوها وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشـفع في أقـوام دخلـوا النـار. وهذه الأحاديث حجة على الطـائفتين: " الوعيدية " الـذين يقولـون: من دخلها من أهل التوحيد لم يخـــــــرج منها وعلى " المرجئة الواقفة " الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقــــول ذلك طوائف من الشــــيعة والأشــــعرية كالقاضي أبي بكر وغــيره. وأما ما يــذكر عن " غلاة المرجئة " أنهم قالوا: لن يدخل النـار من أهل التوحيد أحد فلا نعـرف قـائلا مشهورا من المنسوبين إلى العلم يذكر عنه هذا القول. و " أيضا " فــإن النــبي صــلى الله عليه وســلم قد شــهد لشــارب الخمر المجلـود مـرات بأنه يحب الله ورسـوله ونهى عن لعنته ومعلـوم أن من أحب الله ورسـوله أحبه الله ورسـوله بقـدر ذلـك. وأيضا فإن الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن أثاثة وكـان من أهل بـدر وقد أنـزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله: {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمســاكين والمهــاجرين في ســبيل الله وليعفــوا وليصــفحوا ألا تحبــون أن يغفر الله لكم}. وإن قيــل: إن مســطحا وأمثاله تــابوا لكن الله لم يشــرط في الأمر بــالعفو عنهم والصــفح والإحســان إليهم التوبــة. وكــذلك {حــاطب بن أبي بلتعة كــاتب المشــركين بأخبــار النــبي صــلى الله عليه وســلم فلما أراد عمر قتله قــال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: إنه قد شـهد بـدرا وما يـدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرت

لكم ؟}. وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: {لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة} وهذه النصوص تقتضي: أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة ؛ وإلا فلا اختصاص لأولئك بهذا ؛ والحديث يقتضي المغفرة بذلك العمل. وإذا قيل: إن هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له إلا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا. وأن هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و " أيضا " قد دلت نصوص الكتاب والسنة: على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب. " أحدها " التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين قال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} وقال تعالى: {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم}. وقال تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات} وأمثال ذلك " السبب الثاني " الاستغفار كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إذا أذنب عبد ذنبا فقال: أي رب أذنبت ذنبا فاغفر لي فقال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم أذنب ذنبا آخر فقال أي رب أذنبت ذنبا آخر. فاغفره لي فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء قال ذلك: في الثالثة أو الرابعة} وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: {لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم}. وقد يقال على هذا الوجه الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث {ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة} وقد يقال: بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع وبسط هذا له موضع آخر فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به عام في كل تائب وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول: لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات ؛ لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان وأمثال ذلك كثير. " السبب الثالث ": الحسنات الماحية كما قال تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات} وقال صلى الله عليه وسلم: {الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر} وقال: {من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر

له ما تقدم من ذنبه} وقال: {من قام ليلة القدر إيمانا واحتسـابا غفر له ما تقدم من ذنبه} وقال {من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمـه} وقـال: {فتنة الرجل في أهله وماله وولـده تكفرها الصـلاة والصـيام والصـدقة والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر.} وقـال: {من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضـوا منه من النـار حـتى فرجه بفرجـه} وهـذه الأحـاديث وأمثالها في الصـحاح. وقـال: {الصـدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النـار والحسد يأكل الحسـنات كما تأكل النـار الحطب}. وسـؤالهم على هـذا الوجه أن يقولـوا الحسـنات إنما تكفر الصـغائر فقط فأما الكبـائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما قد جـاء في بعض الأحـاديث: " ما اجتنبت الكبـائر " فيجـاب عن هـذا بوجـوه. (أحـدها): أن هـذا الشـرط جـاء في الفرائض. كالصلوات الخمس والجمعة وصيام شـهر رمضـان وذلك أن الله تعالى يقول: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات وأما الأعمـال الزائـدة من التطوعـات فلا بد أن يكـون لها ثـواب آخر فإن الله سبحانه يقول: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} {ومن يعمل مثقال ذرة شـرا يـره}. (الثـاني): أنه قد جـاء التصـريح في كثـير من الأحـاديث بـأن المغفـرة قد تكـون مع الكبـائر كما في {قولـه صلى الله عليه وسلم: غفر له وإن كان فر من الزحف} وفي السنن {أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب. فقـال: أعتقـوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضـوا منه من النـار.} وفي الصـحيحين في {حـديث أبي ذر وإن زنى وإن سـرق.}. (الثـالث): أن {قولـه لأهل بـدر ونحـوهم اعملـوا ما شئتم فقد غفرت لكم} إن حمل على الصـغائر أو على المغفـرة مع التوبة لم يكن فـرق بينهم وبين غـيرهم. فكما لا يجـوز حمل الحـديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. (الرابع): أنه قد جاء في غير {حـديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يـوم القيامة الصـلاة فـإن أكملها وإلا قيـل: انظـروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كـذلك}. ومعلـوم أن ذلك النقص المكمل لا يكـون لـترك مستحب ؛ فإن ترك المسـتحب لا يحتـاج إلى جـبران ولأنه حينئذ لا فـرق بين ذلك المسـتحب المـتروك والمفعـول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات. وهذا لا ينافي من أن الله لا يقبل النافلة حـتى تـؤدى الفريضة مع أن هـذا لو كـان معارضا للأول لـوجب تقـديم الأول لأنه أثبت وأشـهر وهـذا غـريب رفعه وإنما

المعروف أنه في وصية أبي بكر لعمر ؛ وقد ذكـره أحمد في " رسـالته في الصـلاة ". وذلك لأن قبـول النافلة يـراد به الثـواب عليها. ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حـتى تـؤدى الفريضة فإنه إذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كـانت جـبرا لها وإكمـالا لهـا. فلم يكن فيها ثـواب نافلة ولهـذا قـال بعض السـلف: النافلة لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله قد غفر له ما تقـدم من ذنبه وما تـأخر وغـيره يحتـاج إلى المغفـرة. وتـأول على هذا قولـه: {ومن الليل فتهجد به نافلة لـك} وليس إذا فعل نافلة وضـيع فريضة تقـوم النافلة مقـام الفريضة مطلقا بل قد تكـون عقوبته على تـرك الفريضة أعظم من ثـواب النافلـة. فـإن قيل: العبد إذا نام عن صلاة أو نسـيها كـان عليه أن يصـليها إذا ذكرها بالنص والإجماع. فلو كان لها بدل من التطوعـات لم يجب القضاء. قيل: هذا خطأ فـإن قيل هـذا يقـال في جميع مسـقطات العقـاب. فيقـال: إذا كـان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ومعلـــوم أن العبد عليه أن يفعل المـــأمور ويـــترك المحظور ؛ لأن الإخلال بذلك سـبب للـذم والعقـاب وإن جـاز مع إخلاله أن يرتفع العقـاب بهـذه الأسـباب كما عليه أن يحتمي من السـمــوم القاتلة وإن كـــان مع تناوله لها يمكن رفع ضـــررها بأسباب من الأدوية. والله عليم حكيم رحيم - أمرهم بما يصـلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسـبابا يتوصـلون بها إلى رفع الضـرر عنهم ولهذا قيل: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس النـاس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله. ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه: إني أذنب قال: تب قال: ثم أعـود , قال: تب قال: ثم أعود , قـال: تب قـال: إلى مـتى قـال: إلى أن تحزن الشيطان. وفي المسند عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن الله يحب العبد المفتن التـواب}. وأيضا فـإن من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته إذا اسـتيقظ أو ذكرها كفـارة لها تـــبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الـــذم والعقـــاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعـات فلا نعلم القـدر الـذي يقـوم ثوابه مقـام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم إذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صـار واجبا فلا يكـون تطوعا والتطوعـات شـرعت لمزيد التقـرب إلى الله كما قـال تعـالى. في الحـديث الصـحيح: {ما تقـرب إلي عبـدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبه} الحديث فإذا لم يكن العبد قد أدى الفـرائض كما أمر لم يحصل له مقصـود النوافل ولا يظلمه الله فـإن الله

لا يظلم مثقـال ذرة بل يقيمها مقـام نظيرها من الفـرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء: فإن وفاهم وتطـوع لهم كان عادلا محسنا. وإن وفـاهم ولم يتطـوع كـان عـادلا , وإن أعطاهم ما يقوم مقـام دينهم وجعل ذلك تطوعا كـان غالطا في جعله ؛ بل يكون من الواجب الذي يستحقونه. ومن العجب أن " المعتزلة " يفتخرون بـأنهم أهل " التوحيد " و " العـدل " وهم في توحيـدهم نفـوا الصـفات نفيا يسـتلزم التعطيل والإشـراك. وأما " العـدل الـذي وصف الله به نفسه " فهو أن لا يظلم مثقـال ذرة وأنه: من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شـرا يره وهم يجعلـون جميع حسـنات العبد وإيمانه حابطا بـذنب واحد من الكبـائر وهـذا من الظلم الـذي نـزه الله نفسه عنه فكـان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر اللـه. (الخـامس): أن الله لم يجعل شـيئا يحبط جميع الحسـنات إلا الكفر كما أنه لم يجعل شـيئا يحبط جميع السـيئات إلا التوبـة. و " المعتزلة مع الخـوارج " يجعلـون الكبـائر محبطة لجميع الحسـنات حـتى الإيمـان قـال الله تعـالى: {ومن يرتـدد منكم عن دينه فيمت وهو كـافر فأولئك حبطت أعمـالهم في الـدنيا والآخـرة وأولئك أصـحاب النـار هم فيها خالـدون} فعلق الحبـوط بـالموت على الكفر وقد ثبت أن هـذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عند عدمه. وقـال تعـالى {ومن يكفر بالإيمـان فقد حبط عملـه} وقـال تعـالى لما ذكر الأنبيـاء: {ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهـديناهم إلى صـراط مسـتقيم ذلك هـدى الله يهـدي به من يشـاء من عبـاده ولو أشـركوا لحبط عنهم ما كـانوا يعملـون} وقـال: {لئن أشـركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} مطابق لقولـه تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشـرك بـه}. فـإن الإشـراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود في النار لـزم من ذلك حبـوط حسـنات صـاحبه , ولما ذكر سـائر الـذنوب غـير الكفر لم يعلق بها حبـوط جميع الأعمـال , وقولـه: {ذلك بـأنهم اتبعـوا ما أسـخط الله وكرهـوا رضـوانه فأحبط أعمـالهم}. لأن ذلك كفر , وقولـه تعـالى: {لا ترفعوا أصواتكم فـوق صـوت النـبي ولا تجهـروا له بـالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشـعرون} لأن ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشـية أن يحبط فنهـاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضي للحبـوط. ولا ريب أن المعصـية قد تكـون سـببا للكفر كما قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر ؛ فينهى عنها خشـية أن تفضي إلى الكفر المحبط ؛ كما قـال تعـالى: {فليحـذر الـذين

يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة} - وهي الكفر - {أو يصيبهم عذاب أليم} وإبليس خالف أمر الله فصار كافرا ؛ وغيره أصابه عذاب أليم. وقد احتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى: {إنما يتقبل الله من المتقين} قالوا: فصاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يتقبل الله منه عملا فلا يكون له حسنة وأعظم الحسنات الإيمان فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار وقد أجابتهم المرجئة: بأن المراد بالمتقين من يتقي الكفر فقالوا لهم: اسم المتقين في القرآن يتناول المستحقين للثواب كقوله تعالى: {إن المتقين في جنات ونهر} {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} وأيضا فابنا آدم حين قربا قربانا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافرا وإنما كفر بعد ذلك ؛ إذ لو كان كافرا لم يتقرب وأيضا فما زال السلف يخافون من هذه الآية ولو أريد بها من يتقي الكفر لم يخافوا وأيضا فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له في خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه. و " الجواب الصحيح ": أن المراد من اتقى الله في ذلك العمل كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} قال: أخلصه وأصوبه قيل: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله - كأهل الرياء - لم يقبل منه ذلك. كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: {أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه}. وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول} وقال: {لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار} وقال في الحديث الصحيح: {من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد} أي فهو مردود غير مقبول. فمن اتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقيا في ذلك العمل وإن كان متقيا للشرك. وقد قال تعالى: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} وفي حديث {عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب ؟ قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه}. وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور: وهذا أظهر الوجوه في

استثناء من استثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم: أنا مؤمن " إن شاء الله " - وصليت - إن شاء الله - لخوف أن لا يكون آتى بالواجب على الوجه المأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق ؛ لا يجوز أن يراد بالآية: إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيا فإن كان قبول العمل مشروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة. بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق في حال تخلصه منه. و " أيضا " فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقا. و " أيضا " فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف - وكذلك الذمي إذا أسلم - قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه ؛ فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم ؛ بل يكون مع إسلامه مخلدا وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات. كما ثبت في الصحيح {أن المغيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قوما في الجاهلية فغدر بهم وأخذ أموالهم وجاء فأسلم فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف دفعه المغيرة بالسيف فقال: من هذا فقالوا: ابن أختك المغيرة فقال يا غدر ألست أسعى في غدرتك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فأقبله وأما المال فلست منه في شيء} وقد قال تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين} وقالوا لنوح: {أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} {قال وما علمي بما كانوا يعملون} {إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون}. ولا نعرف أحدا من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة. (السبب الرابع) الدافع للعقاب: دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه}. وعن

ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه} رواهما مسلم. وهذا دعاء له بعد الموت. فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر وكفرت عنه الصغائر وحده فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين. فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت. (السبب الخامس): ما يعمل للميت من أعمال البر ؟ كالصدقة ونحوها فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة واتفاق الأئمة وكذلك العتق والحج. بل قد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: {من مات وعليه صيام صام عنه وليه} وثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} لوجهين. (أحدهما) أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه كدعاء الملائكة واستغفارهم له كما في قوله تعالى: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا} الآية. ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما في قوله تعالى: {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} وقوله سبحانه: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول} وقوله عز وجل: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} كدعاء المصلين للميت ولمن زاروا قبره - من المؤمنين -. (الثاني): أن الآية ليست في ظاهرها إلا أنه ليس له إلا سعيه وهذا حق فإنه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه ؛ لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به ؛ كما أنه دائما يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم. وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الأسباب فيرحم الجميع كما في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ما من رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل} وكما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: {من صلى على جنازة فله قيراط ؛ ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان ؛ أصغرهما مثل أحد} فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ويرحم الميت أيضا بدعاء هذا الحي له. (السبب السادس): شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {شفاعتي لأهل الكبائر من

أمـتي}. وقولـه صـلى الله عليه وسـلم: {خـيرت بين أن يـدخل نصف أمـتي الجنـة، وبين الشـفاعة فـاخترت الشـفاعة لأنها أعم وأكـــثر ؛ أترونها للمتقين ؟ لا. ولكنها للمـــذنبين المتلـــوثين الخطائين}. (السبب السابع): المصائب الـتي يكفر الله بها الخطايا في الـدنيا كما في الصـحيحين عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {ما يصـيب المـؤمن من وصب ؛ ولا نصب ؛ ولا هم ؛ ولا حزن ؛ ولا غم ؛ ولا أذى - حـتى الشـوكة يشـاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه} (السبب الثامن): ما يحصل في القـبر من الفتنة والضـغطة والروعة فـإن هـذا مما يكفر به الخطايـا. (السـبب التاسع): أهـوال يـوم القيامة وكربها وشـدائدها. (السـبب العاشـر): رحمة الله وعفـوه ومغفرته بلا سـبب من العبـاد. فـإذا ثبت أن الذم والعقاب قد يدفع عن أهل الـذنوب بهـذه الأسـباب العشـرة كان دعواهم أن عقوبات أهل الكبائر لا تنـدفع إلا بالتوبة مخـالف لذلك0

(فصل) (ص501)

" فهـذان القـولان ": قـول الخـوارج الـذين يكفـرون بمطلق الذنوب ويخلدون في النار ؛ وقول من يخلدهم في النـار ويجـزم بـأن الله لا يغفر لهم إلا بالتوبة ويقـول ليس معهم من الإيمـان شيء لم يـذهب إليهما أحد من أئمة الـدين أهل الفقه والحـديث بل هما من الأقوال المشهورة عن أهل البـدع. وكـذلك قـول من وقف في أهل الكبـائر من غلاة المرجئة وقـال لا أعلم أن أحـدا منهم يـدخل النـار هو أيضا من الأقـوال المبتدعة ؛ بل السـلف والأئمة متفقـون على ما تـواترت به النصـوص من أنه لا بد أن يدخل النار قوم من أهل القبلة ثم يخرجون منها. وأما من جـزم بأنه لا يدخل النار أحد من أهل القبلة فهذا لا نعرفه قولا لأحـد. وبعـده قـول من يقـول: ما ثم عـذاب أصلا وإنما هو تخويف لا حقيقة له وهذا من أقوال الملاحـدة والكفـار. وربما احتج بعضـهم بقولـه: {ذلك يخـوف الله به عبـاده} فيقـال لهـذا: التخويف إنما يكون تخويفا إذا كان هناك مخـوف يمكن وقوعه بـالمخوف فـإن لم يكن هناك ما يمكن وقوعه امتنع التخويف لكن يكون حاصـله إيهام الخائفين بما لا حقيقة له كما توهم الصبي الصغير. ومعلوم أن مثل هـــذا لا يحصل به تخويف للعقلاء الممـــيزين. لأنهم إذا علموا أنه ليس هناك شيء مخوف زال الخـوف وهـذا شـبيه بما تقول " الملاحدة " المتفلسفة والقرامطة ونحـوهم: من أن الرسل صـلوات الله وسـلامه عليهم: خـاطبوا النـاس بإظهـار أمـور من الوعد والوعيد لا حقيقة لها في الباطن وإنما هي أمثال مضروبة

لتفهم حـــال النفس بعد المفارقة وما أظهـــروه لهم من الوعد والوعيد وإن كـان لا حقيقة له فإنما يعلق لمصـلحتهم في الـدنيا إذ كان لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة. و " هـذا القـول " مع أنه معلـوم الفسـاد بالضـرورة من دين الرسل ؛ فلو كـان الأمر كذلك لكان خواص الرسل الأذكياء يعلمون ذلك وإذا علموه زالت محـــافظتهم على الأمر والنهي كما يصـــيب خـــواص ملاحـــدة المتفلسفة والقرامطـة: من الإسـماعيلية والنصـيرية ونحـوهم فـإن البـارع منهم في العلم والمعرفة يـزول عنه عنـدهم الأمر والنهي وتبــاح له المحظـورات وتسـقط عنه الواجبـات فتظهر أضـغانهم وتنكشف أسـرارهم ويعـرف عمـوم النـاس حقيقة دينهم البـاطن حـتى سـموهم باطنية ؛ لإبطـانهم خلاف ما يظهـرون. فلو كـان - والعيـــاذ بالله - دين الرسل كـــذلك لكـــان خواصه قد عرفـــوه وأظهروا باطنه. وكـان عند أهل المعرفة والتحقيق من جنس دين الباطنية ومن المعلوم بالاضـطرار أن الصـحابة الـذين كـانوا أعلم الناس بباطن الرسول وظـاهره وأخـبر النـاس بمقاصـده ومراداته كـانوا أعظم الأمة لزوما لطاعة أمـره - سـرا وعلانية - ومحافظة على ذلك إلى المـــــوت وكل من كـــــان منهم إليه وبه أخص وبباطنه أعلم - كـــأبي بكر وعمر - كـــانوا أعظمهم لزوما للطاعة سرا وعلانية ومحافظة على أداء الواجب واجتنـاب المحـرم باطنا وظـاهرا وقد أشـبه هـؤلاء في بعض الأمـور ملاحـدة المتصـوفة: الذين يجعلون فعل المـأمور وتـرك المحظـور واجبا على السـالك حـــتى يصـــير عارفا محققا في زعمهم ؛ وحينئذ يســـقط عنه التكليف ويتأولون على ذلك قوله تعالى: {واعبد ربك حـتى يأتيك اليقين} زاعمين أن اليقين هو ما يدعونه من المعرفة واليقين هنا الموت وما بعده. كما قال تعالى عن أهل النار: {وكنا نخوض مع الخائضين} {وكنا نكذب بيوم الدين} {حـتى أتانا اليقين} {فما تنفعهم شـــفاعة الشـــافعين}. قـــال الحسن البصـــري إن الله لم يجعل لعبـاده المؤمـنين أجلا دون المـوت وتلا هـذه الآيـة. ومنه {قولـه صلى الله عليه وسلم لما تـوفي عثمـان بن مظعـون: أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه} وهؤلاء قد يشـهدون القـــدر أولا وهي الحقيقة الكونية ويظنـــون أن غاية العـــارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشـهود وذلك المشـهد لا تميـيز فيه بين المـــأمور والمحظـــور ومحبوبـــات الله ومكروهاته وأوليائه وأعدائه. وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولا الطاعة والمعصية ثم شـهد طاعة بلا معصـية - يريد بـذلك طاعة القـدر - كقـول بعض شيوخهم: أنا كافر برب يعصى وقيل له عن بعض الظـالمين: هـذا ماله حـــرام فقـــال: إن كـــان عصى الأمر فقد أطـــاع الإرادة. ثم

ينتقلون " إلى المشهد الثـالث " لا طاعة ولا معصـية وهو مشـهد أهل الوحـدة القـائلين بوحـدة الوجـود وهـذا غاية إلحـاد المبتدعة جهمية الصــــوفية كما أن القرمطة آخر إلحــــاد الشــــيعة وكلا الإلحــادين يتقاربــان. وفيهما من الكفر ما ليس في دين اليهــود والنصارى ومشركي العرب والله أعلم.

(فصل) (ص504)

ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والإيمان نزاعا كثيرا منه لفظي وكثير منه معنوي فإن أئمة الفقهـاء لم ينـازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام وإن كان بعضهم أعلم بالــدين وأقــوم به من بعض ولكن تنــازعوا في الأســماء كتنــازعهم في الإيمــــان هل يزيد وينقص ؟ وهل يســــتثنى فيه أم لا ؟ وهل الأعمــال من الإيمــان أم لا ؟ وهل الفاسق الملي مــؤمن كامل الإيمــان أم لا ؟ والمــأثور عن الصـحابة وأئمة التـابعين وجمهـور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنســوب إلى أهل الســنة أن الإيمــــان قــــول وعمل يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصــية وأنه يجــوز الاســتثناء فيه كما قــال عمــير بن حــبيب الخطمي وغيره من الصـحابة: الإيمـان يزيد وينقص فقيل لـه: وما زيادته ونقصـانه ؟ فقـال: إذا ذكرنا الله وحمـدناه وسـبحناه فتلك زيادتــه. وإذا غفلنا ونســينا وضـيعنا فـذلك نقصـانه. فهـذه الألفـاظ المأثورة عن جمهورهم. وربما قال بعضـهم وكثـير من المتـأخرين: قول وعمل ونية وربما قال آخر: قول وعمل ونية واتباع السنة ؛ وربما قـال: قــول باللســان واعتقـاد بالجنـان وعمل بالأركـان أي بـالجوارح. وروى بعضـهم هـذا مرفوعا إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم في النسخة المنســوبة إلى أبي الصـلت الهـروي عن علي بن أبي موسى الرضا وذلك من الموضــوعات على النــبي صــلى الله عليه وســـلم باتفـــاق أهل العلم بحديثـــه. وليس بين هـــذه العبارات اختلاف معنـوي ولكن القـول المطلق والعمل المطلق ؛ في كلام الســـلف يتنـــاول قـــول القلب واللســـان وعمل القلب والجوارح فقول اللسان بـدون اعتقـاد القلب هو قـول المنـافقين وهذا لا يسمى قولا إلا بالتقييد. كقولـه تعالى: {يقولـون بألسـنتهم ما ليس في قلوبهم} وكذلك عمل الجوارح بدون أعمـال القلـوب هي من أعمال المنافقين ؛ الـتي لا يتقبلها اللـه. فقـول السـلف: يتضــمن القــول والعمل البــاطن والظــاهر ؛ لكن لما كــان بعض الناس قد لا يفهم دخول النية في ذلك ؛ قــال بعضــهم: ونيــة. ثم بين آخــرون: أن مطلق القــول والعمل والنية لا يكــون مقبــولا إلا بموافقة الســنة. وهــذا حق أيضا فــإن أولئك قــالوا: قــول وعمل

ليبينوا اشتماله على الجنس ولم يكن مقصودهم ذكر صفات الأقوال والأعمال ؛ وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب ؛ وقول باللسان وعمل بالجوارح. جعل القول والعمل اسما لما يظهر ؛ فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب ولا بد أن يدخل في قوله: اعتقاد القلب أعمال القلب المقارنة لتصديقه مثل حب الله. وخشية الله ؛ والتوكل على الله ونحو ذلك. فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها. وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن ولم يجدوا ذكر النقص وهذا إحدى الروايتين عن مالك والرواية الأخرى عنه ؛ وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص ؛ وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت ويروى هذا عن ابن المبارك وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته. وأنكر حماد بن أبي سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه والاستثناء فيه ؛ وهؤلاء من مرجئة الفقهاء وأما إبراهيم النخعي - إمام أهل الكوفة شيخ حماد بن أبي سليمان - وأمثاله ؛ ومن قبله من أصحاب ابن مسعود: كعلقمة والأسود ؛ فكانوا من أشد الناس مخالفة للمرجئة وكانوا يستثنون في الإيمان ؛ لكن حماد بن أبي سليمان خالف سلفه ؛ واتبعه من اتبعه ودخل في هذا طوائف من أهل الكوفة ومن بعدهم. ثم إن " السلف والأئمة " اشتد إنكارهم على هؤلاء وتبديعهم وتغليظ القول فيهم ؛ ولم أعلم أحدا منهم نطق بتكفيرهم ؛ بل هم متفقون على أنهم لا يكفرون في ذلك ؛ وقد نص أحمد وغيره من الأئمة: على عدم تكفير هؤلاء المرجئة. ومن نقل عن أحمد أو غيره من الأئمة تكفيرا لهؤلاء ؛ أو جعل هؤلاء من أهل البدع المتنازع في تكفيرهم فقد غلط غلطا عظيما ؛ والمحفوظ عن أحمد وأمثاله من الأئمة ؛ إنما هو تكفير الجهمية المشبهة وأمثال هؤلاء ولم يكفر أحمد " الخوارج " ولا " القدرية " إذا أقروا بالعلم ؛ وأنكروا خلق الأفعال وعموم المشيئة ؛ لكن حكي عنه في تكفيرهم روايتان. وأما " المرجئة " فلا يختلف قوله في عدم تكفيرهم ؛ مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال إنه جهمي كفره ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم ؛ بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة لم يكفرهم أحمد وأمثاله ؛ بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ؛ ويدعو لهم ؛ ويرى الائتمام

بهم في الصلوات خلفهم والحج والغزو معهم والمنع من الخـروج عليهم ما يـراه لأمثـالهم من الأئمـة. وينكر ما أحـدثوا من القـول الباطل الذي هو كفر عظيم وإن لم يعلموا هم أنه كفر ؛ وكـان ينكـره ويجاهـدهم على رده بحسب الإمكـان ؛ فيجمع بين طاعة الله ورســوله في إظهــار الســنة والــدين وإنكــار بــدع الجهمية الملحدين ؛ وبين رعاية حقوق المؤمــنين من الأئمة والأمة ؛ وإن كانوا جهـالا مبتـدعين ؛ وظلمة فاسـقين. وهـؤلاء المعروفـون مثل حمــاد بن أبي ســليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهــاء الكوفة كانوا يجعلون قـول اللسـان ؛ واعتقـاد القلب من الإيمـان ؛ وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله لم يختلف قولــهم في ذلك ولا نقل عنهم أنهم قــالوا الإيمــان مجــرد تصــديق القلب. لكن هــذا القول حكـوه عن " الجهم بن صـفوان " ذكـروا أنه قـال: الإيمـان مجـرد معرفة القلب وإن لم يقر بلسـانه واشـتد نكـيرهم لـذلك حــتى أطلق وكيع بن الجــراح وأحمد بن حنبل وغيرهما كفر من قال ذلك ؛ فإنه من أقوال الجهمية ؛ وقالوا: إن فرعــون وإبليس وأبا طالب واليهود وأمثالهم ؛ عرفوا بقلوبهم وجحدوا بألسـنتهم ؛ فقد كـانوا مؤمـنين. وذكـروا قـول اللـه: {وجحـدوا بها واسـتيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}. وقولـه: {الذين آتيناهم الكتـاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} وقولـه: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} وقالوا: إبليس لم يكذب خـبرا ولم يجحد فـإن الله أمـره بلا رسـول ولكن عصى واسـتكبر ؛ وكـان كـافرا من غـير تكذيب في الباطن وتحقيق هذا مبسـوط في غـير هـذا الموضـع. وحدث بعد هـؤلاء قـول " الكرامية " ؛ إن الإيمـان قـول اللسـان دون تصـديق القلب مع قولــهم إن مثل هـذا يعـذب في الآخـرة ويخلد في النـار. وقـال أبو عبد الله الصـالحي: إن الإيمـان مجـرد تصديق القلب ومعرفته لكن له لـوازم فـإذا ذهبت دل ذلك على عـدم تصـديق القلب وإن كل قــول أو عمل ظـاهر دل الشــرع على أنه كفر كــان ذلك لأنه دليل على عـــدم تصـــديق القلب ومعرفته وليس الكفر إلا تلك الخصلة الواحـدة وليس الإيمـان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة وهذا أشـهر قـولي أبي الحسن الأشعري وعليه أصـحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعـالي وأمثالهما ولهــذا عــدهم أهل المقــالات من " المرجئة " والقــول الآخر عنه كقول السـلف وأهل الحـديث: إن الإيمـان قـول وعمل وهو اختيـار طائفة من أصـحابه ومع هـذا فهو وجمهـور أصـحابه على قــول أهل الحــديث في الاســتثناء في الإيمــان. والإيمــان المطلق عنده ما يحصل به الموافـاة والاسـتثناء عنـده يعـود إلى ذلك ؛ لا إلى الكمال والنقصان والحال. وقد منع أن يطلق القول

بـأن الإيمـان مخلـوق أو غـير مخلـوق وصـنف في ذلك مصـنفا معروفا عند أهل السنة في " كتاب المقـالات ". وقـال إنه يقـول بقولـهم. وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة - كـأبي منصـور الماتريـدي وأمثاله - إلى نظـير هـذا القـول في الأصل وقـالوا إن الإيمـان هو ما في القلب وأن القـول الظـاهر شـرط لثبوت أحكام الدنيا ؛ لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء ونحو ذلك كما عـرف من أصـلهم وأصل نـزاع هـذه الفـرق في الإيمـان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شـــيئا واحـــدا إذا زال بعضه زال جميعه وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {يخرج من النار من كـان في قلبه مثقـال حبة من الإيمان}. ثم قالت " الخـوارج والمعتزلة " الطاعـات كلها من الإيمـان فـإذا ذهب بعضـها ذهب بعض الإيمـان فـذهب سـائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمـان. وقـالت " المرجئة والجهمية ": ليس الإيمان إلا شـيئا واحـدا لا يتبعض أما مجـرد تصـديق القلب كقـول الجهمية أو تصـديق القلب واللسـان كقول المرجئة قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جـزءا منه فإذا ذهبت ذهب بعضه فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهو قول المعتزلة والخوارج لكن قد يكون له لـوازم ودلائل فيسـتدل بعدمها على عدمه. وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضـين حيث قـالوا: الإيمـان قـول وعمل وقـالوا مع ذلك لا يـزول بـزوال بعض الأعمـال حـتى إن ابن الخطيب وأمثاله جعلوا الشافعي متناقضا في ذلك فإن الشافعي كـان من أئمة السـنة وله في الـرد على المرجئة كلام مشـهور وقد ذكر في كتاب الطهارة من " الأم " إجماع الصحابة والتابعين وتـابعيهم على قول أهل السـنة فلما صـنف ابن الخطيب تصـنيفا فيه وهو يقول في الإيمان بقول جهم والصالحي استشكل قـول الشـافعي ورآه متناقضا. وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تـزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشـرة ؛ وكذلك الأجسام المركبة كالسـكنجبين إذا زال أحد جزأيه خـرج عن كونه سـكنجبينا. قـالوا فـإذا كـان الإيمـان مركبا من أقـوال وأعمـال ظـاهرة وباطنة لـزم زواله بـزوال بعضـها. وهـذا قـول الخـوارج والمعتزلة قـالوا: ولأنه يلـزم أن يكـون الرجل مؤمنا بما فيه من الإيمان كـافرا بما فيه من الكفر فيقـوم به كفر وإيمـان وادعوا أن هذا خلاف الإجماع ولهـذه الشـبهة - والله أعلم - امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه ؛ كأنه ظن: إذا قـال ذلك يلزم ذهابه كله ؛ بخلاف ما إذا زاد. ثم إن " هذه الشبهة "

هي شـبهة من منع أن يكـون في الرجل الواحد طاعة ومعصـية لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر فلا يجتمع فيه كفر وإيمـان وقـالوا ما ثم إلا مـؤمن محض أو كـافر محض ثم نقلـوا حكم الواحد من الأشـخاص إلى الواحد من الأعمـال فقـالوا: لا يكـون العمل الواحد محبوبا من وجه مكروها من وجه وغلا فيه أبو هاشم فنقله إلى الواحد بـالنوع فقـال: لا يجـوز أن يكون جنس السجود أو الركـوع أو غـير ذلك من الأعمـال بعض أنواعه طاعة وبعضـها معصـية ؛ لأن الحقيقة الواحـدة لا توصف بوصـفين مختلفين بل الطاعة والمعصـية تتعلق بأعمـال القلـوب وهو قصد السـاجد دون عمله الظـاهر. واشـتد نكـير النـاس عليه في هذا القول وذكروا من مخالفته للإجماع , وجحده للضـروريات شرعا وعقلا ما يتبين به فساده. وهـؤلاء منتهى نظـرهم أن يـروا حقيقة مطلقة مجـردة تقـوم في أنفسـهم فيقولـون: الإيمـان من حيث هو هو والسـجود من حيث هو هو لا يجـوز أن يتفاضل ولا يجـوز أن يختلف وأمثـال ذلك ؛ ولو اهتـدوا لعلمـوا أن الأمـور الموجودة في الخارج عن الذهن متمـيزة بخصائصـها وأن الحقيقة المجردة المطلقة لا تكون إلا في الـذهن وأن النـاس إذا تكلمـوا في التفاضل والاختلاف فإنما تكلموا في تفاضل الأمور الموجـودة واختلافها لا في تفاضل أمر مطلق مجرد في الذهن لا وجـود له في الخـارج ومعلـوم أن السـواد مختلف فبعضه أشد من بعض وكذلك البياض وغيره من الألوان. وأما إذا قـدرنا السـواد المجـرد المطلق الـذي يتصـوره الـذهن فهـذا لا يقبل الاختلاف والتفاضل لكن هـذا هو في الأذهـان لا في الأعيـان. ومثل هـذا الغلط وقع فيه كثـير من الخائضـين في أصـول الفقه حيث أنكـروا تفاضل العقل أو الإيجـاب أو التحـريم وإنكـار التفاضل في ذلك قـول القاضي أبي بكر وابن عقيل وأمثالهما لكن الجمهـور على خلاف ذلك وهو قـــول أبي الحسن التميمي وأبي محمد البربهـــاري والقاضي أبي يعلى وأبي الخطاب وغيرهم. وكذلك وقع نظير هـذا لأهل المنطق والفلسـفة ولمن تـابعهم من أهل الكلام والاتحـاد في توحيد واجب الوجـود ووحدته حـتى أخـرجهم الأمر إلى ما يستلزم التعطيل المحض كما بينـاه في غـير هـذا الموضـع. وأهل المنطق اليونان مضطربون في هذا المقـام يقـول أحـدهم القـول ويقول نقيضه كما هو مـذكور في موضـعه ونحن نـذكر ما يتعلق بهذا الموضع فنقـول - ولا حـول ولا قـوة إلا بالله - الكلام في " طـرفين ". (أحـدهما): أن شـعب الإيمـان هل هي متلازمة في الانتفـاء ؟ ؟ و (الثـاني): هل هي متلازمة في الثبـوت ؟ ؟ أما " الأول " فإن الحقيقة الجامعة لأمور - سواء كـانت في الأعيـان أو

الأعـراض - إذا زال بعض تلك الأمـور فقد يـزول سـائرها وقد لا يـزول ولا يلـزم من زوال بعض الأمـور المجتمعة زوال سـائرها وسـواء سـميت مركبة أو مؤلفة أو غـير ذلك لا يلـزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها. وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطـابق لـذلك فـإن الواحد من العشـرة إذا زال لم يلـزم زوال التسعة بل قد تبقى التسعة فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر ؛ لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة وزالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الـذي اسـتحقته الهيئة بـذلك الاجتمـاع والـتركيب كما يـزول اسم العشـرة والسـكنجبين. فيقال: أما كون ذلك المجتمع المـركب ما بقي على تركيبه فهـذا لا ينـازع فيه عاقل ولا يـدعي عاقل أن الإيمـان أو الصـلاة أو الحج أو غـير ذلك من العبـادات المتناولة لأمـور إذا زال بعضـها بقي ذلك المجتمع المـركب كما كـان قبل زوال بعضه ولا يقـول أحـد: إن الشـجرة أو الـدار إذا زال بعضـها بقيت مجتمعة كما كانت ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعا. كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم: {كل مولـود يولد على الفطـرة فـأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسـانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعـاء هل تحسـون فيها من جـدعاء} فالمجتمعة الخلق بعد الجدع لا تبقى مجتمعة ولكن لا يلزم زوال بقية الأجـزاء. وأما زوال الاسم فيقـال لهم هـذا: " أولا " بحث لفظي إذا قـدر أن الإيمـان له أبعـاد وشـعب ؛ كما قـال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم في الحـديث المتفق عليـه: {الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة أعلاها قـول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحيـاء شـعبة من الإيمـان} كما أن الصـلاة والحج له أجـزاء وشـعب ولا يلـزم من زوال شـعبة من شـعبه زوال سائر الأجزاء والشعب ؛ كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصـلاة زوال سـائر الأجـزاء. فـدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصـواب ونحن نسـلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كـانت. يبقى الـنزاع هل يلـزم زوال الاسم بـزوال بعض الأجـزاء فيقـال لهم: المركبـات في ذلك على وجهين منهـا: ما يكـون الـتركيب شرطا في إطلاق الاسم ومنها: ما لا يكـون كـذلك فـالأول كاسم العشرة وكذلك السـكنجبين ومنها ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجـزاء ؛ وجميع المركبـات المتشـابهة الأجـزاء من هـذا البـاب وكـذلك كثـير من المختلفة الأجـزاء فـإن المكيلات والموزونـات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة وكذلك التراب والمـاء ونحو ذلـك. وكـذلك لفظ العبـادة والطاعة والخـير والحسـنة والإحسـان

والصـــدقة والعلم ونحو ذلك مما يـــدخل فيه أمـــور كثـــيرة يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها وعند زوال بعض الأجـزاء وبقـاء بعض وكذلك لفظ " القرآن " فيقال على جميعه وعلى بعضه ولو نـــزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآنا وقد تسمى الكتب القديمة قرآنا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {خفف على داود القـرآن} وكـذلك لفظ القـول والكلام والمنطق ونحو ذلك يقع على القليل من ذلك وعلى الكثـير. وكـذلك لفظ الـذكر والـدعاء يقـال للقليل والكثـــير وكـــذلك لفظ الجبل يقـــال على الجبل وإن ذهب منه أجـزاء كثـيرة. ولفظ البحر والنهر يقـال عليه وإن نقصت أجـزاؤه وكـذلك المدينة والـدار والقرية والمسـجد ونحو ذلك يقـال على الجملة المجتمعة ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم بـاق وكـذلك أسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقـال على جملتها فيـدخل فيها الأغصان وغيرها ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق وكـذلك لفظ الإنسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق ثم يـذهب كثـير من أعضـائه والاسم بـاق وكـذلك أسـماء بعض الأعلام: كزيد وعمـــرو يتنـــاول الجملة المجتمعة ثم يـــزول بعض أجزائها والاسم بـاق. وإذا كـانت المركبـات على نـوعين بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولـهم إنه إذا زال جزؤه لـزم أن يـزول الاسم إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقـاء الجـزء البـاقي. ومعلـوم أن اسم " الإيمان " من هذا الباب ؛ فإن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال: {الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة أعلاها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان} ثم من المعلـــــوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يـــــزل اسم الإيمان. وقد ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم في الصـحيحين أنه قال: {يخرج من النار من كان في قلبه مثقـال حبة من إيمـان} فـــأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه وأن ذاك من الإيمـــان فعلم أن بعض الإيمـان يـزول ويبقى بعضه وهـذا ينقض مآخـذهم الفاسـدة ويـبين أن اسم الإيمـان مثل اسم القـرآن والصـلاة والحج ونحو ذلك أما الحج ونحـوه ففيه أجـزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل كـرمي الجمـار والمـبيت بمـنى ونحو ذلك وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المسـتحب كرفع الصـوت بـالإهلال والرمل والاضـطباع في الطـواف الأول. وكـذلك " الصـلاة " فيها أجـــزاء تنقص بزوالها عن كمـــال الاســـتحباب وفيها أجـــزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمـال الـواجب مع الصـحة في مـذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك وفيها ما له أجـــزاء إذا زالت جـــبر نقصـــها بسـجود السـهو وأمـور ليست كـذلك. فقد رأيت أجـزاء الشـيء تختلف أحكامها شرعا وطبعا فإذا قال المعترض: هذا الجزء داخل

في الحقيقة وهذا خارج من الحقيقة قيل لـه: مـاذا تريد بالحقيقة فإن قال: أريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافرا قيل لــه: ليس للإيمــان حقيقة واحــدة مثل حقيقة مســمى " مســلم " في حق جميع المكلفين في جميع الأزمـــان بهـــذا الاعتبـــار مثل حقيقة الســواد والبيــاض ؛ بل الإيمــان والكفر يختلف بــاختلاف المكلف وبلوغ التكليف له وبزوال الخطـاب الـذي به التكليف ونحو ذلـك. وكــذلك الإيمــان والــواجب على غــيره مطلق ؛ لا مثل الإيمــان الواجب عليه في كل وقت فإن الله لما بعث محمدا رسولا إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصـديقه فيما أخـبر وطاعته فيما أمر ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس ولا صيام شهر رمضـان ولا حج الـبيت ولا حـرم عليهم الخمر والربا ونحو ذلك ولا كـان أكـثر القـرآن قد نـزل فمن صـدقه حينئذ فيما نـزل من القـرآن وأقر بما أمر به من الشــهادتين وتوابع ذلك كــان ذلك الشــخص حينئذ مؤمنا تــام الإيمــان الــذي وجب عليه وإن كــان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه ولو اقتصر عليه كان كافرا. قال الإمام أحمد: كان بدء الإيمــان ناقصا فجعل يزيد حــتى كمل ولهــذا قــال تعــالى عــام حجة الــوداع: {اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمـــتي}. و " أيضا " فبعد نـــزول القـــرآن وإكمــال الــدين إذا بلغ الرجل بعض الــدين دون بعض كــان عليه أن يصــدق ما جــاء به الرســول جملة وما بلغه عنه مفصلا وأما ما لم يبلغه ولم يمكنه معرفته فذاك إنما عليه أن يعرفه مفصلا إذا بلغه و " أيضا " فالرجل إذا آمن بالرسول إيمانا جازما ومات قبل دخول وقت الصلاة أو وجوب شيء من الأعمال مـات كامل الإيمان الذي وجب عليه فإذا دخل وقت الصلاة فعليه أن يصــلي وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك. وكذلك القــادر على الحج والجهــاد يجب عليه ما لم يجب على غــيره من التصــديق المفصل والعمل بذلك. فصار ما يجب من الإيمان يختلف باختلاف حال نزول الــوحي من الســماء وبحــال المكلف في البلاغ وعدمه وهذا مما يتنوع به نفس التصديق ويختلف حاله بــاختلاف القــدرة والعجز وغــير ذلك من أســباب الوجــوب وهــذه يختلف بها العمل أيضــا. ومعلــوم أن الــواجب على كل من هــؤلاء لا يماثل الــواجب على الآخــر. فــإذا كــان نفس ما وجب من الإيمــان في الشــريعة الواحدة يختلف ويتفاضل - وإن كــان بين جميع هــذه الأنــواع قــدر مشترك موجــود في الجميــع: كــالإقرار بالخــالق وإخلاص الــدين له والإقرار برســله واليــوم الآخر على وجه الإجمــال - فمن المعلــوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كــان قد تبعض ما أتى فيه من الإيمــان كتبعض ســائر الواجبــات. يبقى أن

يقــال: فــالبعض الآخر قد يكــون شــرطا في ذلك البعض وقد لا يكون شرطا فيه فالشـرط كمن آمن ببعض الكتـاب وكفر ببعضه أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم كما قـال تعـالى: {إن الـذين يكفـــرون بالله ورســـله ويريـــدون أن يفرقـــوا بين الله ورســـله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريـدون أن يتخـذوا بين ذلك سبيلا} {أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عـذابا مهينـا}. وقد يكــون البعض المــتروك ليس شــرطا في وجــود الآخر ولا قبوله. وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفـاق. وبعض شـعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر ؛ كما في الصـحيحين عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {أربع من كن فيه كـان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كـانت فيه خصـلة من النفـاق حتى يدعها: إذا حدث كـذب وإذا ائتمن خـان وإذا عاهد غـدر وإذا خاصم فجر} وفي الصحيح عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {من مـات ولم يغز ولم يحـدث نفسه بـالغزو مـات على شـعبة نفاق} وقد ثبت في الصحيح {عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قال لأبي ذر: إنك امرؤ فيك جاهلية} وفي الصحيح عنه صـلى الله عليه وســـلم قـــال: {أربع في أمـــتي من أمر الجاهلية لن يـــــدعوهن: الفخر بالأحســــاب والطعن في الأنســــاب والنياحة والاستسقاء بالنجوم}. وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسـلم أنه قال: {سباب المسلم فسوق وقتاله كفر} وفي صـحيح مسـلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم {: اثنتـــان في النـــاس هما بهم كفـــر: الطعن في النسب والنياحة على الميت} وفي الصـــحيحين عن أبي هريـــرة رضي الله عنه أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: {لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم} وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته: لا ترغبـوا عن آبـائكم فـإن كفـرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم. وفي الصـحيحين عن أبي ذر سـمع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النـار ومن رمى رجلا بـالكفر أو قـال يا عـدو الله وليس كـذلك إلا رجع عليـه}. وفي لفظ البخـاري {ليس من رجل ادعى لغـــير أبيه وهو يعلمه إلا كفر بالله ومن ادعى قوما ليس منهم فليتبوأ مقعده من النـار} وفي الصـحيحين من حـديث جرير وابن عمر {عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قـال في حجة الوداع: لا ترجعوا بعدي كفارا يضـرب بعضـكم رقـاب بعض} ورواه البخـــاري من حـــديث ابن عبـــاس: وفي البخـــاري عن أبي هريـرة " عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إذا قـال

الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما}. وفي الصحيحين {عن زيد بن خالد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب}. وفي صحيح مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ألم تروا إلى ما قال ربكم قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة ؛ إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون: بالكوكب وبالكواكب} ونظائر هذا موجودة في الأحاديث. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف في قوله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} {فأولئك هم الفاسقون} و {الظالمون} كفر دون كفر ؛ وفسق دون فسق وظلم دون ظلم. وقد ذكر ذلك أحمد والبخاري وغيرهما. (الأصل الثاني) أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء} وقال: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه}. وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله فيه {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}. وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك. فقال: لسعد بن معاذ: كذبت والله ؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله ؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية. ولهذه الشبهة {سمى عمر حاطبا منافقا فقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه شهد بدرا} فكان عمر متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة ؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه ؛ إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين ؛ هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين. ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا بل فيهم

المنــافق المحض ؛ وفيهم من فيه إيمــان ونفــاق ؛ وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفـاق. وكـان كثـير ذنـوبهم بحسب ظهور الإيمان ؛ ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك ؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك ؛ ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحــوه من السـلف ؛ أنهم سـموا الفسـاق منـافقين ؛ فجعل أهل المقـالات هذا قـولا مخالفا للجمهـور ؛ إذا حكـوا تنـازع النـاس في الفاسق الملي هل هو كـافر ؟ أو فاسق ليس معه إيمــان ؟ أو مــؤمن كامل الإيمــان ؟ أو مـؤمن بما معه من الإيمـان فاسق بما معه من الفسق ؟ أو منــافق والحسن - رحمه الله تعــالى - لم يقل ما خــرج به عن الجماعة لكن ســماه منافقا على الوجه الــذي ذكرناه. والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق ولهذا كثيرا ما يقـال: كفر ينقل عن الملة وكفر لا ينقل ونفاق أكبر ونفاق أصغر كما يقال: الشرك شركان أصغر وأكبر ؛ وفي صحيح أبي حـاتم وغـيره عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {الشـرك في هـذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقـال أبو بكـر: يا رسـول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقــــــال: ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشـرك بك وأنا أعلم وأسـتغفرك لما لا أعلم}. وفي الترمـذي عن النـبي صـــلى الله عليه وســـلم أنه قـــال: {من حلف بغـــير الله فقد أشرك} قال الترمذي حديث حسن. وبهـذا تـبين أن الشـارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص ؛ لانتفاء كماله الـواجب وإن كـان معه بعض أجزائه كما قال: {لا يزني الزاني حين يـزني وهو مـؤمن ؛ ولا يسرق السـارق حين يسـرق وهو مـؤمن ؛ ولا يشـرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن} ومنه قولـه: {من غشـنا فليس منا ومن حمل علينا السـلاح فليس منـا}. فـإن صـيغة " أنا " و " نحن " ونحو ذلك من ضـمير المتكلم في مثل ذلك يتنـاول النـبي صـلى الله عليه وســلم والمؤمـــنين معه - الإيمـــان المطلق - الـــذي يسـتحقون به الثـواب. بلا عقـاب ومن هنا قيل إن الفاسق الملي يجـوز أن يقـال: هو مـؤمن باعتبـار ويجـوز أن يقـال: ليس مؤمنا باعتبــار. وبهــذا تــبين أن الرجل قد يكــون مســلما لا مؤمنا ولا منافقا مطلقا بل يكـون معه أصل الإيمـان دون حقيقته الواجبـة. ولهــذا أنكر أحمد وغــيره من الأئمة على من فسر قولـه صــلى الله عليه وســــــلم: " ليس منا " ليس مثلنا أو ليس من خيارنا وقال هـذا تفسـير " المرجئة " وقـالوا: لو لم يفعل هـذه الكبـيرة كـان يكـون مثل النـبي صـلى الله عليه وسـلم. وكـذلك تفسـير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلـود

في النـار ؛ تأويل منكر كما تقـدم فلا هـذا ولا هـذا. ومما يـبين ذلك أنه من المعلـوم أن معرفة الشـيء المحبـوب تقتضي حبه ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه ومعرفة المخـوف تقتضي خوفه , فنفس العلم والتصـديق بالله وما له من الأسـماء الحسـنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشـيته ؛ وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته. والإرادة الجازمة مع القـدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقـدور عليه منه ؛ فالعبد إذا كـان مريدا للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها ؛ صلى فـإذا لم يصل مع القدرة دل ذلك على ضعف الإرادة. وبهذا يـزول الاشـتباه في " هـذا المقـام ". فـإن النـاس تنـازعوا في الإرادة بلا عمل ؛ هل يحصل بها عقاب ؟. وكـثر الـنزاع في ذلـك. فمن قـال: لا يعـاقب احتج بقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم الـذي في الصـحيحين {إن الله تجاوز لأمتي عما حـدثت به أنفسـها ما لم تتكلم به أو تعمل به} وبما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال {: إذا هم العبد بسـيئة لم تكتب عليه فـإن عملها كتبت عليه سـيئة واحـدة وإذا هم بحسـنة كتبت له حسـنة كاملة ؛ فـإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وفي رواية فإن تركها فاكتبوها له حسنة ؛ فإنما تركها من جرائي}. ومن قـال: يعـاقب احتج بما في الصـحيح " عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إذا التقى المسلمان بسيفيهما. فالقاتل والمقتـول في النـار ؛ قيـل: يا رسـول الله هـذا القاتل فما بـال المقتـول ؛ قـال: إنه أراد قتل صاحبه} ؛ وبالحديث الذي رواه الترمـذي وصـححه عن أبي كبشة الأنماري {عن النبي صلى الله عليه وسـلم: في الـرجلين اللـذين أوتي أحدهما علما ومالا فهو ينفقه في طاعة الله ؛ ورجل أوتي علما ولم يؤت مالا ؛ فقال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال: فهما في الأجر سواء ؛ ورجل آتـاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معصـية الله ؛ ورجل لم يؤته الله علما ولا مـالا فقـال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ؛ قـال فهما في الـوزر سـواء}. و " الفصل في ذلك " أن يقـال: فـرق بين الهم والإرادة " فـالهم " قد لا يقترن به شيء من الأعمـال الظـاهرة فهـذا لا عقوبة فيه بحـال بل إن تركه لله كما تـرك يوسف همه أثيب على ذلك كما أثيب يوسف ولهذا قـال أحمـد: الهم همـان: هم خطـرات , وهم إصـرار ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له في هذه القضية ذنب أصلا بل صـرف الله عنه السـوء والفحشـاء إنه من عباده المخلصين ؛ مع ما حصل من المراودة والكذب والاسـتعانة

عليه بالنسوة وحبسه وغير ذلك من الأسباب التي لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ولكن يوسف اتقى الله وصبر فأثابه الله برحمته في الدنيا. {ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون}. وأما " الإرادة الجازمة " فلا بد أن يقترن بها مع القدرة فعل المقدور ولو بنظرة أو حركة رأس أو لفظة أو خطوة أو تحريك بدن ؛ وبهذا يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: {إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار}. فإن المقتول أراد قتل صاحبه فعمل ما يقدر عليه من القتال وعجز عن حصول المراد وكذلك الذي قال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان فإنه أراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام ولم يقدر على ذلك ولهذا كان من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء لأنه أراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم إذ لا يقدر إلا على ذلك. وإذا تبين هذا في " الإرادة والعمل ": فالتصديق الذي في القلب وعلمه يقتضي عمل القلب كما يقتضي الحس الحركة الإرادية لأن النفس فيها قوتان: قوة الشعور بالملائم والمنافي والإحساس بذلك والعمل والتصديق به , وقوة الحب للملائم والبغض للمنافي والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاة والمعاداة. وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور وإدراك المنافي يوجب الألم والغم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم {كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء}. فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به ودينا له لكن يعرض لها ما يفسدها ومعرفة الحق تقتضي محبته , ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ؛ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ولهذا أمرنا الله أن نقول في الصلاة: {اهدنا الصراط المستقيم} {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون} ؛ لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته. والنصارى لهم عبادة وفي قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها لكن بلا علم فهم ضلال. هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد في الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن واتباع الهوى ؛ فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن

مشركي أهل الكتـاب: {وقـالوا لو كنا نسـمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} وقال تعـالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثـيرا من الجن والإنس لهم قلـــوب لا يفقهـــون بها ولهم أعين لا يبصـــرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}. فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورســـــوله ونحو ذلك ؛ كما أنه لا يكـون إيمانا بمجـرد ظن وهـوى ؛ بل لا بد في أصل الإيمـــان من قـــول القلب وعمل القلب , وليس لفظ الإيمـــان مرادفا للفظ التصــــديق كما يظنه طائفة من النــــاس ؛ فــــإن التصـــديق يســتعمل في كل خـــبر فيقــال لمن أخــبر بـــالأمور المشــهورة مثــل: الواحد نصف الاثــنين , والســماء فــوق الأرض مجيبـا: صـدقت وصـدقنا بـذلك ؛ ولا يقـال: آمنا لك ولا آمنا بهـذا حتى يكـون المخـبر به من الأمـور الغائبة فيقـال للمخـبر آمنا له وللمخبر به آمنا به كما قال إخوة يوسف: {وما أنت بمؤمن لنا} أي بمقر لنا ومصــدق لنا لأنهم أخــبروه عن غــائب ومنه قولـه تعـالى: {أنـؤمن لك واتبعك الأرذلـون} وقولـه تعـالى {يـؤمن بالله ويـؤمن للمؤمـنين} وقولـه تعـالى: {أنـؤمن لبشـرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} وقولـه تعـالى: {وإن لم تؤمنـوا لي فـاعتزلون} {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومــه} أي: أقر لــه. وذلك أن الإيمــان يفــارق التصــديق أي: لفظا ومعــنى ؛ فإنه أيضا يقــال: صــدقته فيتعدى بنفسه إلى المصدق ولا يقـال أمنته إلا من الأمـان الـذي هو ضد الإخافة بل آمنت له وإذا ساغ أن يقال: ما أنت بمصـدق لفلان كما يقال: هل أنت مصـدق لـه. لأن الفعل المتعـدي بنفسه إذا قـــدم مفعوله عليه أو كـــان العامل اسم فاعل ونحـــوه مما يضعف عن الفعل فقد يعدونه بـاللام تقوية له كما يقـال: عـرفت هـذا وأنا به عـارف وضـربت هـذا وأنا له ضـارب وسـمعت هـذا ورأيته وأنا له سامع وراء كذلك يقال صـدقته وأنا له مصـدق ولا يقـــال صـــدقت له به وهـــذا خلاف آمن فإنه لا يقـــال إذا أردت التصـــديق آمنته كما يقـــال أقـــررت له ومنه قولـه آمنت له كما يقال أقـررت له فهـذا فـرق في اللفـظ. و " الفـرق الثـاني ": ما تقدم من أن الإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار بل في الإخبار عن الأمـــور الغائبة ونحوها مما يـــدخلها الـــريب. فـــإذا أقر بها المستمع قيل آمن بخلاف لفظ التصديق فإنه عام متنــاول لجميع الأخبار. وأما " المعنى ": فإن الإيمـان مـأخوذ من الأمن الـذي هو الطمأنينة ؛ كما أن لفظ الإقــرار: مــأخوذ من قريقر وهو قــريب من آمن يــأمن ؛ لكن الصــادق يطمــأن إلى خــبره ؛ والكــاذب بخلاف ذلك كما يقـال الصـدق طمأنينة والكـذب ريبة ؛ فـالمؤمن

دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقـــرار ولفظ الإقـــرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكـون على وجهين: (أحـدهما): الإخبـار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق ؛ والشهادة ونحوهمـا. وهـذا معـنى الإقرار الذي يذكره الفقهـاء في كتـاب الإقـرار. و (الثـاني) إنشـاء الالتزام كما في قولـه تعالى: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قـال فاشـهدوا وأنا معكم من الشـاهدين}. وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قـال: {وإذ أخذ الله ميثـاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتــؤمنن به ولتنصــرنه قــال أأقــررتم وأخــذتم على ذلكم إصــري}. فهـذا الالـتزام للإيمـان والنصر للرسـول وكـذلك " لفظ الإيمــان " فيه إخبــار وإنشــاء والــتزام ؛ بخلاف لفظ التصــديق المجرد فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضـمن طمأنينة إلى المخـبر ؛ لا يقــال فيه آمن له بخلاف الخــبر الــذي يتضــمن طمأنينة إلى المخــبر والمخــبر قد يتضــمن خــبره طاعة المســتمع له وقد لا يتضــمن إلا مجــرد الطمأنينة إلى صــدقه فــإذا تضــمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنا للمخبر ؛ إلا بالتزام طاعته مع تصديقه ؛ بل قد استعمل لفظ الكفر - المقابل للإيمان - في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد ؛ فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما اسـتعمل لفظ الإقـرار في نفس الـتزام الطاعة والانقيـاد ؛ فـإن الله أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكـافرين. و " أيضا " فلفظ التصـديق إنما يسـتعمل في جنس الإخبـار فـإن التصديق إخبار بصدق المخبر ؛ والتكذيب إخبـار بكـذب المخـبر ؛ فقد يصـدق الرجل الكـاذب تـارة [وقد يكـذب الرجل] الصـادق أخـرى فالتصـديق والتكـذيب نوعـان من الخـبر , وهما خـبر عن الخـبر فالحقـائق الثابتة في نفسـها الـتي قد تعلم بـدون خـبر لا يكـاد يسـتعمل فيها لفظ التصـديق والتكـذيب إن لم يقـدر مخـبر عنها بخلاف الإيمــان والإقــرار والإنكـار والجحــود ونحو ذلك فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقـائق أيضـا. وأيضا فالـذوات الـتي تحب تارة وتبغض أخرى وتوالى تارة وتعادى أخرى وتطـاوع تـارة وتعصى أخـرى ويـذل لها تـارة ويسـتكبر عنها أخـرى تختص هـذه المعــــاني فيها بلفظ الإيمــــان والكفر ونحو ذلك ؛ وأما لفظ التصــديق والصــدق ونحو ذلك فيتعلق بمتعلقها كــالحب والبغض فيقـال: حب صـادق. وبغض صـادق فكما أن الصـدق والكـذب في إثبات الحقائق ونفيها متعلق بـالخبر النـافي والمثبت دون الحقيقة ابتــــداء. فكــــذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بــــالحب والبغض. دون الحقيقة ابتــــداء بخلاف لفظ الإيمــــان والكفر فإنه يتنـاول الـذوات بلا واسـطة إقـرار أو إنكـار أو حب أو بغض أو

طمأنينة أو نفور. ويشهد لهذا الدعاء المأثور المشهور عند استلام الحجر {اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم} فقال إيمانا بك ولم يقل تصديقا بك كما قال تصديقا بكتابك وقال تعالى عن مريم: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه} فجعل التصديق بالكلمات والكتب ومنه الحديث الذي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم {تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق بكلماتي ويروى إيمان بي وتصديق برسلي ويروى لا يخرجه إلا جهاد في سبيل الله وتصديق كلماته} ففي جميع الألفاظ جعل لفظ التصديق بالكلمات والرسل. وكذلك قوله في الحديث الذي في الصحيح {ذكر النبي صلى الله عليه وسلم منازل عالية في الجنة فقيل له: يا رسول الله: تلك منازل لا يبلغها إلا الأنبياء فقال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين}. وما يحصى الآن الاستعمال المعروف في كلام السلف صدقت بالله , أو فلان يصدق بالله أو صدق بالله ونحو ذلك كما جاء فلان يؤمن وآمن بالله وإيمانا بالله ونؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ونؤمن بالله وحده ونحو ذلك. فإن القرآن والحديث وكلام الخاصة والعامة مملوء من لفظ الإيمان بالله وآمن بالله ونؤمن بالله ويا أيها الذين آمنوا وما أعلم قيل التصديق بالله أو صدقوا بالله أو يا أيها الذي صدق الله ونحو ذلك اللهم إلا أن يكون في ذلك شيء لا يحضرني الساعة وما أظنه. ولفظ " الإيمان " يستعمل في الخبر أيضا كما يقال: {كل آمن بالله}: أي أقر له والرسول يؤمن له من جهة أنه مخبر ويؤمن به من جهة أن رسالته مما أخبر بها كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه. " فالإيمان " متضمن للإقرار بما أخبر به والكفر " تارة " يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به. و " تارة " بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به والأصل في ذلك هو الإخبار بالله وبأسمائه ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره. وإن كان الرسول أخبر بكليهما ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به إذا لم يكن معه طاعة لأمره لا باطنا ولا ظاهرا ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك إيمانا. وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم ؛ فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك ؛ لا لأجل تكذيب. وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقال له موسى: {لقد

علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض} فالذي يقال هنا أحد أمرين: إما أن يقال الاستكبار والإبـاء والحسد ونحو ذلك مما الكفر به مستلزم لعـدم العلم والتصـديق الـذي هو الإيمـان وإلا فمن كـــان علمه وتصـــديقه تاما أوجب استســـلامه وطاعته مع القدوة كما أن الإرادة الجازمة تستلزم وجـود المـراد مع القـدرة فعلم أن المـــراد إذا لم يوجد مع القـــدرة دل على أنه ما في القلب همة ولا إرادة ؛ فكـــذلك إذا لم يوجد مـــوجب التصـــديق والعلم من حب القلب وانقيـاده دل على أن الحاصل في القلب ليس بتصـــديق ولا علم بل هنا شـــبهة وريب كما يقـــول ذلك طوائف من الناس وهو أصل قول جهم والصالحي والأشعري في المشـهور عنه وأكـثر أصـحابه كالقاضي أبي بكر ومن اتبعه ممن يجعل الأعمـال الباطنة والظـاهرة من موجبـات الإيمـان لا من نفسه ويجعل ما ينتفي الإيمـان بانتفائه من لـوازم التصـديق لا يتصور عنده تصـديق بـاطن مع كفر قـط. أو أن يقـال: قد يحمل في القلب علم بـــالحق وتصـــديق به ولكن ما في القلب من الحسد والكـبر ونحو ذلك مـانع من استسـلام القلب وانقيـاده ومحبته ؛ وليس هذا كالإرادة مع العمل ؛ لأن الإرادة مع القـدرة مسـتلزمة للمـراد وليس العلم بـالحق والتصـديق به مع القـدرة على العمل بمـــــوجب ذلك العمل بل لا بد مع ذلك من إرادة الحق والحب لـه. فـإذا قـال القائـل: القـدرة التامة بـدون الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود المراد المقدور موجبة لحصـول المقـدور لم يكن مصيبا ؛ بل لا بد من الإرادة. وبهذا يتبين خطأ من قال: إن مجرد علم الله بالمخلوقـات مـوجب لوجودها كما يقـول ذلك من يقولـه من أهل الفلسـفة ؛ كما يغلط النـاس من يقـول إن مجرد إرادة الممكنات بدون القدرة موجب وجودها , وكما خطـأوا من قـال: إن مجـرد القـدرة كافية بل لا بد من العلم والقـدرة والإرادة في وجـود المقـدور والمـراد ؛ والإرادة مسـتلزمة لتصـور المراد والعلم به ؛ والعلم والإرادة والقدرة ونحو ذلك ؛ وإن كان قد يقـال: إنها متلازمة في الحي أو أن الحيـاة مسـتلزمة لهـذه الصفات أو أن بعض الصفات مشروط بالبعض فلا ريب أنه ليس كل معلوم مرادا محبوبا ولا مقدورا ولا كل مقدور مـرادا محبوبا وإذا كان كذلك لم يلزم من كون الشـيء معلوما مصـدقا به أن يكـون محبوبا معبـودا بل لا بد من العلم ؛ وأمر آخر به يكـون هـذا محبا وهـذا محبوبـا. فقـول من جعل مجـرد العلم والتصـديق في العبد هو الإيمان وأنه مـوجب لأعمـال القلب فـإذا انتفت دل على انتفـاء العلم ؛ بمنزلة من يقـول: مجـرد علم الله بنظـام العالم موجب لوجوده ؛ بدون وجـود إرادة منه وهو شـبيه بقـول

المتفلسـفة: إن سـعادة النفس في مجـرد أن تعلم الحقـائق ولم يقرنوا ذلك بحب الله تعالى وعبادته التي لا تتم السـعادة إلا بها ؛ وهو نظـير من يقـول: كمـال الجسم أو النفس في الحب من غـير اقـتران الحركة الإرادية به , ومن يقـول: اللـذة في مجـرد الإدراك والشـعور. وهـذا غلط باتفـاق العقلاء بل لا بد من إدراك الملائم ؛ والملائمة لا تكون إلا بمحبة بين المدرك والمدرك وتلك المحبة والموافقة والملائمة ليست نفس إدراكه والشعور بـه. وقد قـال كثـير من النـاس من الفلاسـفة والأطبـاء ومن اتبعهم إن " اللـذة " إدراك الملائم وهـذا تقصـير منهم بل اللـذة حـال يعقب إدراك الملائم ؛ كالإنســان الــذي يحب الحلو ويشـــتهيه فيدركه بالـذوق والأكل ؛ فليست اللـذة مجـرد ذوقه بل أمر يجـده من نفسه يحصل مع الذوق فلا بد " أولا " من أمـرين ؛ و " آخـرا " من أمــرين: لا بد " أولا ": من شـعور بــالمحبوب ؛ ومحبة له ؛ فما لا شـعور به لا يتصـور أن يشـتهى وما يشـعر به وليس في النفس محبة له لا يشـتهى ثم إذا حصل إدراكه بـالمحبوب نفسه حصل عقيب ذلك اللذة والفرح مع ذلك. ولهذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الـدعاء المـأثور: {اللهم إني أسـألك لـذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ؛ من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضـلة} وفي الحـديث الصـحيح {إذا دخل أهل الجنة الجنـة: نـــادى منـــاد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعـــدا يريد أن ينجزكمــوه فيقولــون: ما هو ؟ ألم يــبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويـدخلنا الجنة ويجرنا من النـار قـال: فيكشف الحجـاب فينظـرون إليه ؛ فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه} رواه مسلم وغــيره. فاللــذة مقرونة بــالنظر إليه ؛ ولا أحب إليهم من النظر إليه لما يقـترن بـذلك من اللـذة ؛ لا أن نفس النظر هو اللـذة. وفي " الجملة " فلا بد في الإيمان الـذي في القلب من تصـديق بالله ورسوله وحب الله ورسوله وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرســوله ؛ ومعـــاداة الله ورســـوله ليس إيمانا باتفـــاق المسلمين ؛ وليس مجـرد التصـديق والعلم يسـتلزم الحب إلا إذا كــان القلب ســليما من المعــارض كالحسد والكــبر لأن النفس مفطورة على حب الحق وهو الـذي يلائمهـا. ولا شـيء أحب إلى القلـوب السـليمة من الله وهـذا هو الحنيفية ملة إبــراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلا. وقد قال تعالى: {يوم لا ينفع مــال ولا بنــون} {إلا من أتى الله بقلب ســليم} فليس مجــرد العلم موجبا لحب المعلـوم ؛ إن لم يكن في النفس قـوة أخـرى تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة في النفس. وكل من القوتين تقـوى بالأخرى فالعلم يقوي العمل والعمل يقوي العلم فمن عـرف الله

وقلبه سليم أحبه ؛ وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له ؛ وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته ؛ فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب ؛ كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغض فمن عادى الله ورسوله وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير ؛ وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه. كما قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم} وقال تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة لكن تصديق ضعيف وعلم ضعيف ؛ ولكن لولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمنا. فمن شرط الإيمان وجود العلم التام ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرا إذا كان مقرا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه كحديث الذي أمر أهله بتحريقه ثم تذريته ؛ بل العلماء بالله يتفاضلون في العلم به. ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم. قال تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب} قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية ؛ فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل ؛ وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. ومنه قول ابن مسعود كفى بخشية الله علما. وكفى بالاغترار بالله جهلا. وقيل للشعبي: أيها العالم فقال: العالم من يخشى الله وقد قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}. وقال أبو حيان التيمي: " العلماء ثلاثة ": عالم بالله ؛ وبأمر الله ؛ وعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله. فالعالم بالله الذي يخشاه. والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه. وقد قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}. وهذا يدل على أن كل من خشي الله فهو عالم. وهو حق ولا يدل على أن كل عالم يخشاه ؛ لكن لما كان العلم به موجبا للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلا على ضعف الأصل إذ لو قوي لدفع المعارض. وهكذا لفظ " العقل " يراد به الغريزة التي بها يعلم ويراد بها أنواع من العلم. ويراد به العمل بموجب ذلك العلم وكذلك لفظ " الجهل " يعبر به عن عدم العلم ويعبر به عن عدم العمل بموجب العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم} والجهل هنا هو الكلام

الباطل بمنزلة الجهل المــركب. ومنه قــول الشــاعر: ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا ومن هذا سـميت " الجاهلية " جاهلية وهي متضــمنة لعـــدم العلم أو لعـــدم العمل به ومنه {قــول النــبي صــلى الله عليه وســلم لأبي ذر: إنك امــرؤ فيك جاهلية لما سـاب رجلا وعـيره بأمـه} وقد قـال تعـالى: {إذ جعل الـذين كفـروا في قلـوبهم الحمية حمية الجاهليـة}. فـإن الغضب والحمية تحمل المـرء على فعل ما يضـره وتـرك ما ينفعه وهـذا من الجهل الـذي هو عمل بخلاف العلم حـتى يقـدم المـرء على فعل ما يعلم أنه يضـــره , وتـــرك ما يعلم أنه ينفعه ؛ لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب مـوجب ذلك لمـوجب العلم فـدل على ضـعف العلم لعـدم موجبه ومقتضـاه ولكن ذلك المـوجب والنتيجة لا توجد عنه وحـــــده بل عنه وعما في النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضــرها فــإذا حصل لها مــرض ففســدت به أحبت ما يضــرها وأبغضت ما ينفعها فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشـهوة نفسه له مع علمه أنه يضـره. " قلت ": هـذا معـنى ما روي عن النــبي صــلى الله عليه وســلم {: أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشـــبهات ويحب العقل الكامل عند حلـــول الشـهوات} رواه الـبيهقي مرسـلا. وقد قـال تعـالى {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار} فوصـفهم بـالقوة في العمل والبصيرة في العلم وأصل القـوة قـوة القلب الموجبة لمحبة الخـير وبغض الشر فـإن المـؤمن قوته في قلبه وضـعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضـعفه في قلبه فالإيمـان لا بد فيه من هـذين الأصـلين: التصـديق بـالحق والمحبة له فهـذا أصل القول وهذا أصل العمل. ثم الحب التام مع القدرة يسـتلزم حركة البدن بالقول الظـاهر , والعمل الظـاهر ضـرورة كما تقـدم فمن جعل مجــرد العلم والتصــديق موجبا لجميع ما يــدخل في مســمى الإيمــان وكل ما ســمي إيمانا فقد غلط بل لا بد من العلم والحب والعلم شــرط في محبة المحبــوب كما أن الحيــاة شــرط في العلم ؛ لكن لا يلــزم من العلم بالشــيء والتصــديق بثبوته محبته إن لم يكن بين العالم والمعلـوم معـنى في المحب أحب لأجله ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثـيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصــديق بوجــود الشــيء لا يقتضي محبته ؛ لكن الله ســبحانه يسـتحق لذاته أن يحب ويعبد وأن يحب لأجله رسـوله , والقلـوب فيها معـــنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معـــنى يقتضي العلم

والتصـــديق به ؛ فمن صـــدق به وبرســـوله ولم يكن محبا له ولرســـوله لم يكن مؤمنا حـــتى يكـــون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله. وإذا قام بـالقلب التصـديق به والمحبة له لـزم ضـرورة أن يتحرك البدن بمـوجب ذلك من الأقـوال الظـاهرة ؛ والأعمـال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمـال هو مـوجب ما في القلب ولازمه ؛ ودليله ومعلوله كما أن ما يقــوم بالبــدن من الأقـوال والأعمـال له أيضا تـأثير فيما في القلب. فكل منهما يـؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل , والبـدن فـرع له والفـرع يستمد من أصله , والأصل يثبت ويقوى بفرعـه. كما في الشـجرة الـتي يضـرب بها المثل لكلمة الإيمـان. قـال تعـالى: {ضـرب الله مثلا كلمة طيبة كشـجرة طيبة أصـلها ثـابت وفرعها في السـماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها} وهي كلمة التوحيد والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قـويت فرعهـا. وفروعها أيضا إذا اغتـذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها. وكـذلك " الإيمـان " في القلب و " الإسلام " علانية ولما كانت الأقوال والأعمـال الظـاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمـال الباطنة كـان يسـتدل بها عليهـا: كما في قولـه تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخــوانهم أو عشـيرتهم أولئك كتب في قلـوبهم الإيمـان وأيـدهم بـروح منـه} فأخبر أن من كـان مؤمنا بالله واليـوم الآخر لا يوجـدون مـوادين لأعداء الله ورسوله. بل نفس الإيمان ينافي مودتهم. فإذا حصــلت المـوادة دل ذلك على خلل الإيمـان وكـذلك قولــه: {تـرى كثـيرا منهم يتولـون الـذين كفـروا لـبئس ما قـدمت لهم أنفسـهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالـدون} {ولو كـانوا يؤمنـون بالله والنـبي وما أنـزل إليه ما اتخـذوهم أوليـاء}. وكـذلك قولــه: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهــدوا بـأموالهم وأنفسـهم في سـبيل الله أولئك هم الصـادقون} فـأخبر تعـالى أن هـؤلاء هم الصـادقون في قولــهم: آمنا ودل ذلك على أن النـاس في قولــهم: آمنا صـادق وكـاذب والكـاذب فيه نفـاق بحسب كذبه. قال تعـالى في المنـافقين: {ومن النـاس من يقـول آمنا بالله وبــاليوم الآخر وما هم بمؤمــنين} - إلى قولـه - {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} وفي يكـذبون قراءتـان مشـهورتان. وفي الحـديث {أسـاس النفـاق الـذي يبـنى عليه الكـذب} وقــال تعالى: {إذا جاءك المنافقون قـالوا نشـهد إنك لرسـول الله والله يعلم إنك لرسـوله والله يشـهد إن المنــافقين لكــاذبون} وقــال تعـــالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضـــله لنصـــدقن ولنكونن من الصالحين} {فلما آتـاهم من فضـله بخلـوا به وتولـوا

وهم معرضون} {فـأعقبهم نفاقا في قلـوبهم إلى يـوم يلقونه بما أخلفـوا الله ما وعـدوه وبما كـانوا يكـذبون} وقـال: {ومنهم من يلمزك في الصدقات} ومثل هذا كثير. و " بالجملة " فلا يسـتريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكـون مؤمنا بمجـرد تصـديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله واستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسـوله ولهـذا كـان جمـاهير المرجئة على أن عمل القلب داخل في الإيمـان كما نقله أهل المقـالات عنهم منهم الأشـعري فإنه قال في كتابه في " المقالات ": اختلف المرجئة في الإيمان ما هو ؟ وهم " اثنتا عشـــرة فرقة ". " الفرقة الأولى " منهم: يزعمـون أن الإيمـان بالله هو المعرفة بالله وبرسـوله وبجميع ما جـاء من عند الله فقط وأن ما سـوى المعرفة من الإقـرار باللسـان والخضـوع بـالقلب والمحبة لله ولرسـوله والتعظيم لهما والخـوف والعمل بـالجوارح فليس بإيمـان وزعمـوا أن الكفر بالله هو الجهل به وهـذا قـول يحكى عن الجهم بن صـفوان قـال: وزعمت الجهمية أن الإنسـان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسـانه أنه لا يكفر بجحـده وأن الإيمـان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون الجوارح قال: و " الفرقة الثانية " من المرجئـة: يزعمـون أن الإيمـان هو المعرفة بالله فقط والكفر به هو الجهل به فقط فلا إيمـــان بالله إلا المعرفة به ولا كفر بالله إلا الجهل به وإن قول القائـل: إن الله ثالث ثلاثة ليس بكفر ولكنه لا يظهر إلا من كـافر وذلك أن الله كفر من قـال ذلك وأجمع المسـلمون أنه لا يقولـه إلا كـافر وزعمـوا أن معرفة الله هي المحبة له وهي الخضـوع للـه. وأصحاب هذا القول لا يزعمون أن الإيمان بالله إيمـان بالرسـول ويقولون: إنه لا يـؤمن بالله إلا من آمن بالرسـول. ليس ذلك لأن ذلك مسـتحيل ولكن الرسـول قـال {من لم يـؤمن بي فليس بمؤمن باللـه} وزعمـوا أيضا أن الصلاة ليست بعبـادة لله وأنه لا عبـادة إلا الإيمـان به وهو معرفته والإيمـان عنـدهم لا يزيد ولا ينقص وهو خصـلة واحـدة وكـذلك الكفر والقائل بهـذا القـول أبو الحسين الصالحي وقد ذكر الأشـعري في كتابه " المـوجز " قـول الصالحي هـذا وغـيره ثم قـال: والـذي أختـاره في الأسـماء قـول الصالحي وفي الخصوص والعموم أني لا أقطع بظاهر الخبر على العمـوم ولا على الخصـوص إذ كـان يحتمل في اللغة أن يكـون خاصا ويحتمل أن يكـــون عاما وأقف في ذلك ولا أقطع على عمـوم ولا على خصـوص إلا بتوقيف أو إجمـاع. ثم قـال في " المقالات ". و " الفرقة الثالثة من المرجئة ": يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضـوع له , وهو تـرك الاسـتكبار عليه ,

والمحبة لله فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مـؤمن وزعمـوا أن إبليس كـان عارفا بالله غـير أنه كفر باسـتكباره على الله وهذا قول قوم من أصحاب يـونس السـمري. و " الفرقة الرابعة ": وهم أصحاب أبي شـمر ويـونس يزعمـون أن الإيمـان المعرفة بالله والمحبة له والخضوع له بالقلب والإقـرار به أنه واحد ليس كمثله شيء ما لم تقم عليه حجة الأنبياء , وإن كانت قد قـامت عليه حجة الأنبيـاء فالإيمـان [الإقـرار] بهم والتصـديق لهم والمعرفة لما جـاء من عند الله عنهم داخل في الإيمـان ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال إيمانا ولا بعض إيمـان حـتى تجتمع هذه الخصال فإذا اجتمعت سموها إيمانا لاجتماعها وشـبهوا ذلك بالبياض إذا كـان في دابة لم يسـموها بلقـاء إلا مع السـواد وجعلـوا تـرك كل خصـلة من هـذه الخصـال كفـرا ولم يجعلـوا الإيمان متبعضا ولا محتملا للزيادة والنقصان. وذكر عن " الخامسة " أصحاب أبي ثوبان: أن الإيمان هو الإقـرار بالله وبرسـله وما لا يجوز في العقل إلا أن يفعله. وذكر عن " الفرقة السادسة ": أن الإيمـان هو المعرفة بالله وبرسـله وفرائضه المجمع عليها والخضـوع له بجميع ذلك , والإقـرار باللسـان وزعمـوا أن خصـال الإيمان كل منها طاعة وأن كل واحدة إذا فعلت دون الأخرى لم تكن طاعة كالمعرفة بلا إقـرار وأن تـرك كل خصـلة من ذلك معصية ؛ وأن الإنسـان لا يكفر بـترك خصـلة واحـدة وأن النـاس يتفاضلون في إيمانهم ويكون بعضهم أعلم وأكـثر تصـديقا له من بعض وأن الإيمان يزيد ولا ينقص وهـذا قـول الحسـين بن محمد النجـار وأصـحابه. و " الفرقة السـابعة " الغيلانية أصـحاب غيلان يزعمـون: أن الإيمـان المعرفة بالله التامة ؛ والمحبة والخضـوع والإقرار بما جاء به الرسـول وبما جـاء من عند الله ؛ وذلك أن المعرفة الأولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الإيمـان وكل هـؤلاء الـذين حكينا قولـهم: من " الشـمرية " و " الجهمية " و " الغيلانية " و " النجارية " ينكرون أن يكون في الكفار إيمـان وأن يقال فيهم بعض إيمان إذ كان الإيمـان لا يتبعض عنـدهم. قـال: و " الفرقة الثامنة " من المرجئة أصـحاب محمد بن شـبيب يزعمون: أن الإيمان الإقـرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء. والإقرار والمعرفة بأنبيائه وبرسله وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه المسلمون ونقلـوه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم من الصـلاة والصـيام ونحو ذلك لا نـزاع بينهم فيـه. والخضـوع لله وهو تـرك الاسـتكبار عليه وزعمـوا أن إبليس قد عرف الله وأقر به وإنما كان كافرا لأنه اسـتكبر ولـولا اسـتكباره ما كان كافرا وأن الإيمان يتبعض ويتفاضل أهله وأن الخصلة من

الإيمان قد تكون طاعة وبعض إيمان ويكون صاحبها كـافرا بـترك بعض الإيمان ولا يكون مؤمنا إلا بإصابة الكل وكل رجل يعلم أن الله واحد ليس كمثله شـيء ويجحد الأنبيـاء فهو كـافر بجحـده الأنبيـاء وفيه خصـلة من الإيمـان وهي معرفته بالله سـبحانه. " الفرقة التاسـعة ": من المرجئة المنتسـبين إلى أبي حنيفة وأصـحابه يزعمـون أن الإيمـان المعرفة بالله وبالرسـول والإقـرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير. " الفرقة العاشرة ": من المرجئة أصـحاب أبي معـاذ التومـني يزعمـون: أن الإيمـان تـرك ما عظم من الكبـائر وهو اسم لخصـال إذا تركها أو تـرك خصـلة منها كـان كـافرا فتلك الخصـلة الـتي يكفر بتركها إيمـان وكل طاعة إذا تركها التـارك لم يجمع المسـلمون على تكفـيره فتلك الطاعة شريعة من شرائع الإيمـان تاركها إن كـانت فريضة يوصف بالفسق فيقال له إنه يفسق ولا يسمى بالفسق ولا يقال فاسق وليست تخرج الكبائر من الإيمان إذا لم تكن كفرا وتـارك الفرائض مثل الصلاة والصـيام والحج على الجحـود بها والـرد لها والاستخفاف بها كافر بالله وإنما كفر للاستخفاف والـرد والجحـود , وإن تركها غير مسـتحل لتركها متشـاغلا مسـوفا يقـول: السـاعة أصـلي وإذا فـرغت من لهـوي وعملي فليس بكـافر وإن كـان يصـلي يوما ووقتا من الأوقـات. ولكن نفسـقه. وكـان أبو معـاذ يقـول: من قتل نبيا أو لطمه كفر وليس من أجل اللطمة كفر ولكن من أجل الاسـتخفاف والعـداوة والبغض لـه. والفرقة " الحادية عشر " من المرجئـة: أصـحاب بشر المريسي يقولـون: إن الإيمان هو التصديق لأن الإيمان في اللغة هو التصديق وما ليس بتصديق فليس بإيمان ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعا وإلى هـذا القـول كـان يـذهب ابن الراونـدي وكـان ابن الراونـدي يـزعم أن الكفر هو الجحد والإنكـار والسـتر والتغطية وليس يجوز أن يكون الكفر إلا ما كان في اللغة كفرا ولا يجـوز إيمـان إلا ما كـان في اللغة إيمانا وكـان يـزعم أن السـجود للشـمس ليس بكفر ولا السجود لغـير الله كفر ولكنه علم على الكفر لأن الله بين أنه لا يسـجد للشـمس إلا كـافر. قـال و " الفرقة الثانية عشر " من المرجئـة: الكرامية أصـحاب محمد بن كـرام يزعمـون أن الإيمـان هو الإقـرار والتصـديق باللسـان دون القلب وأنكـروا أن تكـون معرفة القلب أو شـيء غـير التصـديق باللسان إيمانا. فهـذه الأقـوال الـتي ذكرها الأشـعري عن المرجئة يتضـمن أكثرها أنه لا بد في الإيمـان من بعض أعمـال القلـوب عنـدهم وإنما نـازع في ذلك فرقة يسـيرة: كجهم والصـالحي. وقد ذكر أيضا في " المقـالات " جملة قـول أصـحاب الحـديث وأهل

السنة. قال: جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يردون من ذلك شيئا وأن الله إله واحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وأن الله على عرشه كما قال: {الرحمن على العرش استوى} وأن له يدين بلا كيف كما قال: {خلقت بيدي} وكما قال: {بل يداه مبسوطتان} وأن له عينين كما قال: {تجري بأعيننا} وأن له وجها كما قال: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}. وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج. إلى أن قال: ويقولون القرآن كلام الله غير مخلوق والكلام في الوقف واللفظ بدعة من قال بالوقف أو اللفظ فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال غير مخلوق. إلى أن قال: ولا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه: كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر , والإيمان عندهم: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم والإسلام هو: أن تشهد أن لا إله إلا الله على ما جاء في الحديث والإسلام عندهم غير الإيمان. إلى أن قال: ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق. وذكر كلاما طويلا ثم قال في آخره: وبكل ما ذكرناه من قولهم نقول: وإليه نذهب. فهذا قوله في هذا الكتاب وافق فيه أهل السنة وأصحاب الحديث بخلاف القول الذي نصره في الموجز. والمقصود هنا أن عامة فرق الأمة تدخل ما هو من أعمال القلوب حتى عامة فرق المرجئة تقول بذلك وأما المعتزلة والخوارج وأهل السنة وأصحاب الحديث فقولهم في ذلك معروف وإنما نازع في ذلك من اتبع جهم بن صفوان من المرجئة وهذا القول شاذ كما أن قول الكرامية الذين يقولون هو مجرد قول اللسان شاذ أيضا. وهذا أيضا مما ينبغي الاعتناء به فإن كثيرا ممن تكلم في " مسألة الإيمان " هل تدخل فيه الأعمال ؟ وهل هو قول وعمل ؟ يظن أن النزاع إنما هو في أعمال الجوارح وأن المراد بالقول قول اللسان وهذا غلط ؛ بل القول المجرد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانا باتفاق المسلمين ؛ فليس مجرد التصديق بالباطن هو الإيمان عند عامة المسلمين إلا من شذ من أتباع جهم والصالحي وفي قولهم من السفسطة العقلية والمخالفة في

الأحكـام الدينية أعظم مما في قـول ابن كـرام إلا من شذ من أتباع ابن كـرام وكـذلك تصـديق القلب الـذي ليس معه حب لله ولا تعظيم بل فيه بغض وعـداوة لله ورسـله ليس إيمانا باتفـاق المسـلمين. وقـول ابن كـرام فيه مخالفة في الاسم دون الحكم فإنه - وإن سـمى المنـافقين مؤمـنين - يقـول إنهم مخلـدون في النـــار فيخـــالف الجماعة في الاسم دون الحكم وأتبـــاع جهم يخالفون في الاسم والحكم جميعا.

(فصل) (ص551)

إذا عـرف أن أصل الإيمـان في القلب فاسم " الإيمـان " تـارة يطلق على ما في القلب من الأقـــوال القلبية والأعمـــال القلبية من التصـــديق والمحبة والتعظيم ونحو ذلك وتكـــون الأقـــوال الظـاهرة والأعمـال لوازمه وموجباته ودلائله وتـارة على ما في القلب والبـدن جعلا لمـوجب الإيمـان ومقتضـاه داخلا في مسـماه وبهذا يتبين أن الأعمال الظاهرة تسـمى إسـلاما وأنها تـدخل في مسمى الإيمان تـارة ولا تـدخل فيه تـارة. وذلك أن الاسم الواحد تختلف دلالته بالإفراد والاقتران فقد يكون عند الإفراد فيه عمـوم لمعنـيين وعند الاقـتران لا يـدل إلا على أحـدهما كلفظ الفقـير والمسـكين إذا أفـرد أحـدهما تنـاول الآخر وإذا جمع بينهما كـان لكل واحد مســمى يخصه وكـــذلك لفظ المعـــروف والمنكر إذا أطلقا كما في قوله تعـالى {يـأمرهم بـالمعروف وينهـاهم عن المنكر} دخل فيه الفحشاء والبغي وإذا قرن بالمنكر أحـدهما كما في قولــه: {إن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكـر} أو كلاهما كما في قوله تعالى: {وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي} كـان اسم المنكر مختصا بما خــرج من ذلك على قـــول أو متنـــاولا للجميع على قول - بنـاء على أن الخـاص المعطـوف على العـام هل يمنع شمول العام له ؟ أو يكون قد ذكر مرتين فيه نـزاع - والأقوال والأعمـال الظـاهرة (نتيجة الأعمـال الباطنة ولازمهـا. وإذا أفرد اسم " الإيمان " فقد يتناول هذا وهـذا كما في قـول النـبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان بضع وسبعون شـعبة أعلاها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريـق}. وحينئذ فيكـون الإسلام داخلا في مسمى الإيمان وجـزءا منه فيقـال حينئـذ: إن " الإيمـان " اسم لجميع الطاعـات الباطنة والظـاهرة. ومنه {قولـه صـلى الله عليه وسـلم لوفد عبد القيس آمـركم بالإيمـان بالله أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسـول الله وإقـام الصـلاة وإيتـاء الزكـاة وصـوم رمضـان وتـؤدوا خمس المغنم} أخرجـاه في الصـحيحين. ففسر الإيمـان هنا بما

فسر به الإسلام لأنه أراد بالشهادتين هنا أن يشهد بهما باطنا وظاهرا وكان الخطاب لوفد عبد القيس وكانوا من خيار الناس وهم أول من صلى الجمعة ببلدهم بعد جمعة أهل المدينة كما {قال ابن عباس: أول جمعة جمعت في الإسلام بعد جمعة المدينة جمعة بجواثى - قرية من قرى البحرين - وقالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل نعمل به وندعو إليه من وراءنا وأرادوا بذلك أهل نجد من تميم وأسد وغطفان وغيرهم كانوا كفارا} ؛ فهؤلاء كانوا صادقين راغبين في طلب الدين فإذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأقوال وأعمال ظاهرة فعلوها باطنا وظاهرا فكانوا بها مؤمنين. وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام ؛ فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في " المسند " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الإسلام علانية والإيمان في القلب والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره} ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج ؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله. والانقياد له وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد. وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام ؛ وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة ؛ فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك. وأبو طالب إنما كانت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم لقرابته منه لا لله وإنما نصره وذب عنه لحمية النسب والقرابة ؛ ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه وإلا فلو كان ذلك عن إيمان في القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة والسبب الذي أوجب نصره للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو الحمية - هو الذي أوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه قال الله تعالى {وسيجنبها الأتقى} {الذي يؤتي ماله يتزكى} {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى} {ولسوف يرضى} ومنشأ الغلط في هذه المواضع من وجوه. (أحدها) أن

العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الإيمان. (الثاني): ظن الظان أن ما في القلوب لا يتفاضل الناس فيه. (الثالث) ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه. (الرابع): ظن الظان أن ليس في القلب إلا التصديق وأن ليس الظاهر إلا عمل الجوارح. والصواب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن. و " المرجئة " أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان ؛ فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان. و " التحقيق " أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى - بحسب إفراد الاسم واقترانه - فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وإن كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} فقد يقال: اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له ؛ وقد يقال: بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام ؛ وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء - كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري ؟ وغيره -: الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل , واللسان يصدق ما في القلب , والعمل يصدق القول كما يقال: صدق عمله قوله. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم {العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه} والتصديق يستعمل في الخبر وفي الإرادة يقال: فلان صادق العزم وصادق المحبة وحملوا حملة صادقة. و " السلف " اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان وقالوا إن الإيمان يتماثل الناس فيه ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ بل لا يتساوى الناس في التصديق ولا في الحب ولا في الخشية ولا في العلم ؛ بل يتفاضلون من وجوه كثيرة. و " أيضا " فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا وهذا باطل قطعا فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعا بالضرورة وإن أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان أخطأوا أيضا ؛ لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن.

وليس المقصـــود هنا ذكر كل معين ؛ بل من كـــان مؤمنا بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسـول وأعـداءه يقاتلونه وهو قادر على أن ينظر إليهم ويحض علي نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هـذا في العـادة إلا أن يكـون منه حركة ما إلى نصر الرسول ؟ فمن المعلوم أن هذا ممتنع ؛ فلهذا كان الجهـاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان وكان عدمه دليلا على انتفـاء حقيقة الإيمان بل قد ثبت في الصـحيح عنه {من مـات ولم يغز ولم يحـدث نفسه بـالغزو مـات على شـعبة نفـاق} وفي الحـديث دلالة على أنه يكـــون فيه بعض شـــعب النفـــاق مع ما معه من الإيمـــان ومنه قولـه تعـــالى: {إنما المؤمنـــون الـــذين آمنـــوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصـــــادقون}. و " أيضا " فقد ثبت في الصـــــحيح عن النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم أنه قـــال {من رأى منكم منكـــرا فليغـيره بيـده فـإن لم يسـتطع فبلسـانه فـإن لم يسـتطع فبقلبه وذلك أضـعف الإيمـــان وفي رواية وليس وراء ذلك من الإيمـــان مثقـال حبة خـردل}. فهـذا يـبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كـان عادما للإيمـان والبغض والحب من أعمـال القلـوب. ومن المعلـوم أن إبليس ونحـوه يعلمـون أن الله عز وجل حرم هذه الأمـور ولا يبغضـونها بل يـدعون إلى ما حـــرم الله ورســـوله. و " أيضا " فهـــؤلاء القـــائلون بقـــول جهم والصالحي قد صرحوا بـأن سب الله ورسـوله ؛ والتكلم بـالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفرا في الباطن ولكنه دليل في الظـاهر على الكفر ويجـوز مع هـذا أن يكـون هـذا السـاب الشـاتم في البـاطن عارفا بالله موحـدا له مؤمنا به فـإذا أقيمت عليهم حجة بنص أو إجماع أن هذا كافر باطنا وظاهرا. قالوا: هذا يقتضي أن ذلك مسـتلزم للتكـذيب البـاطن وأن الإيمـان يسـتلزم عـدم ذلك ؛ فيقـال لهم: معنا أمـران معلومـان. (أحـدهما): معلـوم بالاضطرار من الدين. و (الثاني) معلوم بالاضطرار من أنفسنا عند التأمـل. أما " الأول ": فإنا نعلم أن من سب الله ورسـوله طوعا بغير كـره ؛ بل من تكلم بكلمـات الكفر طائعا غـير مكـره ومن اســتهزأ بالله وآياته ورســوله فهو كــافر باطنا وظــاهرا وأن من قـــال: إن مثل هـــذا قد يكـــون في البـــاطن مؤمنا بالله وإنما هو كـافر في الظـاهر فإنه قـال قـولا معلـوم الفسـاد بالضـرورة من الـدين. وقد ذكر الله كلمـات الكفـار في القـرآن وحكم بكفـرهم واستحقاقهم الوعيد بها ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شـــهادة الشـــهود عليهم أو بمنزلة الإقـــرار الـــذي يغلط فيه المقر لم يجعلهم الله من أهل الوعيد بالشهادة التي قد تكـون صـدقا وقد

تكون كذبا بل كان ينبغي أن لا يعذبهم إلا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} وأمثال ذلك. وأما " الثاني ": فالقلب إذا كان معتقدا صدق الرسول وأنه رسول الله وكان محبا لرسول الله معظما له امتنع مع هذا أن يلعنه ويسبه فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبحرمته فعلم بذلك أن مجرد اعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب. و " أيضا " فإن الله سبحانه قال: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت} وقال: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى} فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به. ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر ؛ فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر. وقد قال الله تعالى في السحر: {حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه} إلى قوله: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة ومع هذا فيكفرون. وكذلك المؤمن بالجبت والطاغوت إذا كان عالما بما يحصل بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجبت وكان عالما بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة لم يكن مؤمنا بها مع العلم بأحوالها. ومعلوم أنه لم يعتقد أحد فيها أنها تخلق الأعيان وأنها تفعل ما تشاء ونحو ذلك من خصائص الربوبية ولكن كانوا يعتقدون أنه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمور. وكما يوجد مثل ذلك في هذه الأزمان في الأصنام التي يعبدها أهل الهند والصين والترك وغيرهم وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة واتخاذها وسيلة ونحو ذلك لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار فإن هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر في الدنيا والآخرة فيبغضه ؛ والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر. يبين ذلك قوله: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين} {أولئك الذين طبع الله

على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون} {لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون} فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه وذكر وعيده في الآخرة ثم قال {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة}. وبين تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا. ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض وهؤلاء يقولون إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم وإن كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة وبأنه ما له في الآخرة من خلاق. و " أيضا " فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره ؛ لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه. وقوله تعالى: {ولكن من شرح بالكفر صدرا} أي: لاستحبابه الدنيا على الآخرة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: {يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا} والآية نزلت في عمار بن ياسر وبلال بن رباح وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار ومنهم من صبر على المحنة كبلال ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه بل أكرهوا على التكلم فمن تكلم بدون الإكراه لم يتكلم إلا وصدره منشرح به. وأيضا فقد {جاء نفر من اليهود إلى النبي فقالوا: نشهد إنك لرسول ولم يكونوا مسلمين بذلك ؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله قال: فلم لا تتبعوني ؟ قالوا: نخاف من يهود} فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم. فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارا في الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارا في الظاهر والباطن وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمد وأنشد عنه: ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لكن امتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبا لدين سلفه وكراهة أن يعيره قومه فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمنا. وأما إبليس وفرعون واليهود

ونحـوهم فما قـام بأنفسـهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمـان إلا به وصـار في القلب من كراهية رضـوان الله واتبـاع ما أسـخطه ما كـان كفرا لا ينفع معه العلم.

(فصل) (ص562)

والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة: (أحدها) الأعمال الظـاهرة ؛ فـإن النـاس يتفاضـلون فيها وتزيد وتنقص وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصـان لكن نـزاعهم في دخـول ذلك في مسـمى الإيمـان. فالنفـاة يقولـون هو من ثمـرات الإيمـان ومقتضـاه فأدخل فيه مجازا بهذا الاعتبار وهذا معنى زيـادة الإيمـان عنـدهم ونقصه أي زيادة ثمراته ونقصانها فيقال قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمـان وموجباته فإنه يمتنع أن يكون إيمان تـام في القلب بلا قـول ولا عمل ظـاهر وأما كونه لازما أو جـزءا منه فهـذا يختلف بحسب حـال اسـتعمال لفظ الإيمـان مفـردا أو مقرونا بلفظ الإسـلام والعمل كما تقدم. وأما قولـهم الزيـادة في العمل الظـاهر لا في موجبه ومقتضيه فهذا غلط فإن تفاضل معلول الأشياء. ومقتضـاها يقتضي تفاضـلها في أنفسـها وإلا فـإذا تمـاثلت الأسـباب الموجبة لـزم تماثل موجبها ومقتضـاها فتفاضل النـاس في الأعمـال الظـاهرة يقتضي تفاضـلهم في مـوجب ذلك ومقتضـيه ومن هـذا يتبين: (الوجه الثاني): في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيـادة أعمـال القلوب ونقصها فإنه من المعلوم بالذوق الـذي يجـده كل مـؤمن أن الناس يتفاضـلون في حب الله ورسـوله وخشـية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وفي سـلامة القلـوب من الريـاء والكبر والعجب ونحو ذلك والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية وفي الصحيحين عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمـان من كـان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كـان يكـره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقـذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار} وقال تعـالى: {قل إن كـان آبـاؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم} إلى قولـه: {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصـوا}. وقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: {والله إني لأخشـاكم لله وأعلمكم بحدوده} وقال: {لا يؤمن أحدكم حـتى أكـون أحب إليه من ولـده ووالـده والنـاس أجمعين} {وقـال له عمر يا رسـول الله لأنت أحب إلي من كل شـيء إلا من نفسي قـال: لا يا عمر حـتى

أكـــون أحب إليك من نفسك قـــال: فلأنت أحب إلي من نفسي قـال: الآن يا عمـر}. وهـذه الأحـاديث ونحوها في الصـحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعـالى: {والـذين آمنـوا أشد حبا للــه} وهــذا أمر يجــده الإنســان في نفسه فإنه قد يكـــون الشيء الواحد يحبه تارة أكـثر مما يحبه تـارة ويخافه تـارة أكـثر مما يخافه تارة ولهذا كـان أهل المعرفة من أعظم النـاس قـولا بدخول الزيـادة والنقصـان فيه لما يجـدون من ذلك في أنفسـهم ومن هـذا قولـه تعـالى: {الـذين قـال لهم النـاس إن النـاس قد جمعـوا لكم فاخشـوهم فـزادهم إيمانا وقـالوا حسـبنا الله ونعم الوكيــل} وإنما زادهم طمأنينة وســكونا. وقـــال صــلى الله عليه وسلم: {أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقـا}. (الوجه الثـالث): أن نفس التصـــديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبــــار الإجمـــال والتفصـيل فليس تصـديق من صــدق الرســول مجملا من غــير معرفة منه بتفاصـيل أخبـاره كمن عــرف ما أخــبر به عن الله وأســمائه وصــفاته والجنة والنــار والأمم وصــدقه في ذلك كله وليس من التزم طاعته مجملا ومـات قبل أن يعـرف تفصـيل ما أمره به كمن عاش حتى عـرف ذلك مفصلا وأطاعه فيـه. (الوجه الرابـع): أن نفس العلم والتصـديق يتفاضل ويتفـاوت كما يتفاضل سـائر صـفات الحي من القـدرة والإرادة والسـمع والبصر والكلام بل سائر الأعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك ؛ فإذا كانت القـدرة على الشـيء تتفـاوت فكـذلك الإخبـار عنه يتفـاوت وإذا قـــال القائل العلم بالشـــيء الواحد لا يتفاضل كـــان بمنزلة قولـه القــــدرة على المقــــدور الواحد لا تتفاضل وقولـــــه: ورؤية الشـــــيء الواحد لا تتفاضل ومن المعلـــــوم أن الهلال المـــــرئي يتفاضل الناس في رؤيته وكذلك سـمع الصـوت الواحد يتفاضـلون في إدراكه وكــــذلك الكلمة الواحـــــدة يتكلم بها الشخصـــــان ويتفاضـــلون في النطق بها وكـــذلك شم الشـــيء الواحد وذوقه يتفاضل الشخصـان فيـه. فما من صـفة من صـفات الحي وأنـواع إدراكاته وحركاته بل وغــير صــفات الحي إلا وهي تقبل التفاضل والتفــاوت إلى ما لا يحصــره البشر حــتى يقــال: ليس أحد من المخلــوقين يعلم شــيئا من الأشــياء مثل ما يعلمه الله من كل وجه بل علم الله بالشيء أكمل من علم غيره به كيف ما قــدر الأمر وليس تفاضل العلمين من جهة الحدوث والقدم فقط ؛ بل من وجــوه أخــرى. والإنســان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله في ســـمعه لمســـموعه ؛ ورؤيته لمرئيه , وقدرته على مقـــــــدوره وحبه لمحبوبه وبغضه لبغيضه ورضـاه بمرضـيه وسـخطه لمسـخوطه , وإرادته لمـراده ,

وكراهيته لمكروهه ومن أنكر التفاضل في هــذه الحقــائق كــان مسفسطا. (الوجه الخـامس): أن التفاضل يحصل من هـذه الأمـور من جهة الأسـباب المقتضـية لها ؛ فمن كـان مسـتند تصـديقه ومحبته أدلة توجب اليقين وتـبين فسـاد الشـبهة العارضة لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك بل من جعل له علوم ضــــرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشـبه ويريد إزالتها بـالنظر والبحث ولا يسـتريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها وبفساد الشـبه المعارضة لـذلك وبيـان بطلان حجة المحتج عليها ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له ؛ فإن الشـيء كلما قـويت أسـبابه وتعـددت وانقطعت موانعه واضـمحلت كـان أوجب لكماله وقوته وتمامــه. (الوجه السـادس): أن التفاضل يحصل في هــذه الأمـور من جهة دوام ذلك وثباته وذكـره واستحضـاره كما يحصل البغض من جهة الغفلة عنه والإعــراض والعلم والتصـديق والحب والتعظيم وغير ذلك فما في القلب هي صفات وأعراض وأحــوال تدوم وتحصل بدوام أسبابها وحصول أسبابها. والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه والعالم بالشيء في حـال غفلته عنه دون العالم بالشيء في ذكره له. قال عمـير بن حـبيب الخطمي من أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسـلم: الإيمـان يزيد وينقص قالوا: وما زيادته ونقصه ؟ قال: إذا حمدنا الله وذكرنـاه وسـبحناه فـذلك زيادته فـإذا غفلنا ونسـينا وضـيعنا فـذلك نقصـانه. (الوجه السـابع) أن يقـال: ليس فيما يقـوم بالإنسـان من جميع الأمــور أعظم تفاضلا وتفاوتا من الإيمان فكلما تقـرر إثباته من الصـفات والأفعال مع تفاضـله فالإيمـان أعظم تفاضلا من ذلـك. مثـال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه سواء كــان حبا لولــده أو لامرأته أو لرياســته أو وطنه أو صــديقه أو صورة من الصور أو خيله أو بستانه أو ذهبه أو فضته وغير ذلك من أمواله فكما أن الحب أوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم صـبابة لانصـباب القلب نحـوه ثم غـرام للزومه القلب كما يلـزم الغريم غريمه ثم يصير عشقا إلى أن يصير تتيما - والتـتيم التعبد وتيم الله عبد الله - فيصـير القلب عبـدا للمحبـوب مطيعا له لا يستطيع الخروج عن أمره وقد آل الأمر بكثير من عشاق الصـور إلى ما هو معــروف عند النـــاس مثل من حمله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه أو الكفر والـردة عن الإسـلام أو أفضى به إلى الجنــــون وزوال العقل أو أوجب خروجه عن المحبوبــــات العظيمة من الأهل والمال والرياسة أو إمـراض جسـمه وأسـنانه. فمن قال الحب لا يزيد ولا ينقص كـان قولـه من أظهر الأقـوال

فســادا ومعلــوم أن النــاس يتفاضــلون في حب الله أعظم من تفاضـلهم في حب كل محبـوب فهو سـبحانه اتخذ إبـراهيم خليلا واتخذ محمــدا أيضا خليلا كما اســتفاض عنه أنه قــال: {لو كنت متخــــذا خليلا من أهل الأرض لاتخــــذت أبا بكر خليلا ؛ ولكن صـاحبكم خليل اللـه} يعـني نفسه صـلى الله عليه وسـلم. وقـال: {إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبـراهيم خليلا} والخلة أخص من مطلق المحبة فإن الأنبيـاء عليهم السـلام والمؤمـنين يحبـون الله ويحبهم الله كما قال: {فسوف يـأتي الله بقـوم يحبهم ويحبونـه} الآية. وقال تعالى: {والذين آمنوا أشد حبا لله} وقد أخـبر الله أنه يحب المتقين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وكـان النبي صلى الله عليه وسلم يخـبر بحبه لغـير واحد كما ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم في الصـحيح {أنه قـال للحسن وأسـامة: اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهمـا} {وقــال له عمــرو بن العاص أي الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة قال فمن الرجال ؟ قال: أبوهـا}. وقـال: {والله إني لأحبكم}. والنـاس في حب الله يتفـاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبـراهيم إلى أدنى النـاس درجة مثل من كــان في قلبه مثقــال ذرة من إيمــان وما بين هذين الحدين من الـدرجات لا يحصـيه إلا رب الأرض والسـموات فإنه ليس في أجنــاس المخلوقــات ما يتفاضل بعضه على بعض كبني آدم فإن الفرس الواحدة ما تبلغ أن تساوي ألف ألف وقد ثبت في الصــحيحين من {حــديث أبي ذر أنه كــان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسـلم إذ مر به رجل من أشـراف النـاس فقال: يا أبا ذر أتعرف هذا ؟ قلت: نعم يا رسول الله هذا حــري إن خطب أن ينكح وإن قــال أن يســمع لقولـه وإن غــاب أن يسـأل عنه ثم مر برجل من ضـعفاء المسـلمين فقـال: يا أبا ذر أتعـرف هـذا ؟ قلت: نعم يا رسـول الله هـذا رجل من ضـعفاء الناس هـذا حـري إن خطب ألا ينكح وإن قـال ألا يسـمع لقولـه وإن غــاب ألا يســأل عنه فقــال: يا أبا ذر لهــذا خــير من ملء الأرض مثل هذا}. فقد أخبر الصـادق الـذي لا يجـاوز فيما يقـول: إن الواحد من بني آدم يكون خيرا من ملء الأرض من الآدميين وإذا كـان الواحد منهم أفضل من الملائكة والواحد منهم شر من البهــائم كــان التفاضل الــذي فيهم أعظم من تفاضل الملائكــة. وأصل تفاضــلهم إنما هو بمعرفة الله ومحبته فعلم أن تفاضــلهم في هـذا لا يضـبطه إلا الله وكل ما يعلم من تفاضـلهم في حب الشــيء من محبوبــاتهم فتفاضــلهم في حب الله أعظم. وهكــذا تفاضلهم في خوف ما يخافونه وتفاضلهم في الذل والخضوع لما

يــــذلون له ويخضـــعون وكـــذلك تفاضـــلهم فيما يعرفونه من المعروفـات ويصـدقون به ويقـرون به فـإن كـانوا يتفاضـلون في معرفة الملائكة وصــفاتهم والتصــديق بهم فتفاضــلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم. وكذلك إن كـانوا يتفاضـلون في معرفة روح الإنسـان وصـفاتها والتصـديق بها أو في معرفة الجن وصــفاتهم وفي التصــديق بهم أو في معرفة ما في الآخــرة من النعيم والعــذاب - كما أخــبروا به من المــأكولات والمشــروبات والملبوســات والمنكوحــات والمســكونات - فتفاضــلهم في معرفة الله وصــفاته والتصــديق به أعظم من تفاضــلهم في معرفة " الــروح " الــتي هي النفس الناطقــة. ومعرفة ما في الآخــرة من النعيم والعــذاب. بل إن كـــانوا متفاضـــلين في معرفة أبـــدانهم وصــفاتها وصــحتها ومرضــها وما يتبع ذلك فتفاضــلهم في معرفة الله أعظم وأعظم ؛ فـإن كل ما يعلم ويقـال يـدخل في معرفة الله إذ لا موجـــود إلا وهو خلقه وكل ما في المخلوقـــات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعـال فإنها شـواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى إذ كل كمـال في المخلوقـــات فمن أثر كماله , وكل كمـــال ثبت لمخلـــوق فالخــالق أحق به , وكل نقص تــنزه عنه مخلــوق فالخــالق أحق بتنزيهه عنه , وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها. فهذا يقول كمــال المعلــول من كمــال علته وهــذا يقــول: كمــال المصــنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه. وفي الحديث الـذي رواه أحمد في المسـند ورواه ابن حبـان في صـحيحه عن ابن مسـعود عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {ما أصـاب عبـدا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبـدك ابن أمتك ناصـيتي بيـدك مـاض في حكمك عــدل في قضــاؤك أســألك بكل اسم هو لك ســميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عنــدك أن تجعل القــرآن ربيع قلــبي ونــور صــدري وجلاء حــزني وذهــاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحــا. قــالوا. يا رســول الله ألا نتعلمهن ؟ قــال: بلى ينبغي لمن ســمعهن أن يتعلمهن}. فقد أخــبر في هــذا الحديث أن لله أسماء اســتأثر بها في علم الغيب عنـده وأسـماء الله متضــمنة لصــفاته ليست أســماء أعلام محضة بل أســماؤه تعالى: كالعليم والقـدير والسـميع والبصـير والـرحيم والحكيم ونحو ذلك كل اسم يدل على ما لم يدل عليه الاسم الآخر من معاني صــفاته مع اشــتراكها كلها في الدلالة على ذاته وإذا كـــان من أسمائه ما اختص هو بمعرفته ومن أسمائه ما خص به من شـاء من عبـــــاده علم أن تفاضل النـــــاس في معرفته أعظم من

تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه. وبهذا يتبين لك أن من زعم من أهل الكلام والنظر أنهم عرفـــوا الله حق معرفته بحيث لم يبق له صـفة إلا عرفوها وأن ما لم يعرفـوه ولم يقم لهم دليل على ثبوته كـان معـدوما منتفيا في نفس الأمر قـوم غـالطون مخطئـون مبتـدعون ضـالون وحجتهم في ذلك داحضة فـإن عـدم الـدليل القطعي والظـني على الشـيء دليل على انتفائه إلا أن يعلم أن ثبوته مسـتلزم لـذلك الـدليل. مثل أن يكـون الشـيء لو وجد لتوفرت الهمم والدواعي على نقله فيكـون هـذا لازما لثبوته فيسـتدل بانتفـاء اللازم على انتفـاء الملـزوم ؛ كما يعلم أنه لو كـان بين الشـام والحجـاز مدينة عظيمة مثل بغـداد ومصر لكـان النـاس ينقلـون خبرها فـإذا نقل ذلك واحد واثنـان وثلاثة علم كذبهم. وكما يعلم أنه لو ادعى النبوة أحد على عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم مثل مسـيلمة والعنسي وطليحة وسـجاح لنقل الناس خبره كما نقلوا أخبـار هـؤلاء ولو عـارض القـرآن معـارض أتى بما يظن النـاس أنه مثل القـرآن لنقل كما نقل قـرآن مسيلمة الكذاب وكما نقلوا الفصول والغايات لأبي العلاء المعـري وكما نقلـوا غـير ذلك من أقـوال المعارضـين (و لو بخرافـات لا يظن عاقل أنها مثله فكـان النقل لما تظهر فيه المشـابهة والمماثلة أقوى في العادة والطباع في ذلك وأرغب - سواء كانوا محـبين أو مبغضـين - هـذا أمر جبل عليه بنو آدم. كما يعلم أن علي بن أبي طـالب لو طلب الخلافة على عهد أبي بكر وعمر وعثمـان وقاتل عليها لنقل ذلك النـاس كما نقلـوا ما جـرى بعد هؤلاء ؛ كما يعلم أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لو أمـره أن يصـلي بالنـاس صـلاتهم لنقلـوا ذلك كما نقلـوا أمـره لأبي بكر وصـلاته بالنـاس وكما يعلم أنه لو عهد له بالخلافة لنقلـوا ذلك كما نقلـوا ما دونه ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن يجتمع هو وأصـحابه على اسـتماع دف أو كف ولا على رقص وزمر ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن بعد الصـلوات يجتمع هو وهم على دعـاء ورفع أيد ونحو ذلك إذ لو فعل ذلك لنقلـوه بل كما يعلم أنه لم يصل في السفر الظهر والعصر والعشاء أربعا وأنه لو صـلى في السفر أربعا بعض الأوقات لنقل الناس ذلك كما نقلوا جمعه بين الصـلاتين بعض الأوقـات. بل كما يعلم أنه لم يكن يصـلي المكتوبـات وحـده بل إنما كـان يصـليهن في الجماعة ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن هو وأصحابه يحملون التراب في السفر للـتيمم ولا يصـلون كل ليلة على من يمـوت من المسـلمين ولا ينـوون الاعتكاف كلما دخلوا مسجدا للصلاة ؛ بل كما يعلم أنه لم يصل على غائب غير النجاشي ؛ بل كما يعلم أنه لو كـان دائما يقنت

في الفجر أو غيرها بقنوت مسنون يجهر به لنقل الناس ذلك - كما نقلوا قنوته العارض الذي دعا فيه لقوم وعلى قوم وكان نقلهم لذلك أوكد - وكما يعلم أنه لما صلى بعرفة ومزدلفة قصرا وجمعا لو أمر أحدا خلفه أن يتم صلاته أو أن لا يجمع معه لنقل الناس ذلك كما نقلوا ما هو دون ذلك. وكما يعلم أنه لم يأمر الحيض في زمانه المبتدآت بالحيض أن يغتسلن عند انقضاء يوم وليلة وأنه لم يأمر أصحابه أن يغسلوا ما يصيب أبدانهم وثيابهم من المني وأنه لم يوقت للناس لفظا معينا لا في نكاح ولا في بيع ولا إجارة ولا غير ذلك ولما حج حجة الوداع لم يعتمر عقيب الحج وأنه لما أفاض من منى إلى مكة يوم النحر ما طاف وسعى أولا ثم طاف ثانيا إلى غير ذلك مما يطول ذكره. ومن تتبع كتب الصحيحين ونحوها من الكتب المعتمدة ووقف على أقوال الصحابة والتابعين ومن قفا منهاجهم من الأئمة المرضيين - قديما وحديثا - علم صحة ما أوردناه في هذا الباب. و (المقصود هنا) أن المدلول إذا كان وجوده مستلزما لوجود دليله كان انتفاء دليله دليلا على انتفائه أما إذا أمكن وجوده وأمكن أن لا نعلم نحن دليل ثبوته لم يكن عدم علمنا بدليل وجوده دليلا على عدمه , فأسماء الله وصفاته إذا لم يكن عندنا ما يدلنا عليها لم يكن ذلك مستلزما لانتفائها إذ ليس في الشرع ولا في العقل ما يدل على أنا لا بد أن نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات بل قد قال أفضل الخلق وأعلمهم بالله في الحديث الصحيح {لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك} وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة {فأخر ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحصيها الآن}. فإذا كان أفضل الخلق لا يحصي ثناء عليه ولا يعرف الآن محامده التي يحمده بها عند السجود للشفاعة ؛ فكيف يكون غيره عارفا بجميع محامد الله والثناء عليه وكل ما له من الأسماء الحسنى فإنه داخل في محامده وفيما يثني عليه به وإذا كان كذلك فمن كان بما له من الأسماء والصفات أعلم وأعرف كان بالله أعلم وأعرف ؛ بل من كان بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته أعلم كان بالنبي صلى الله عليه وسلم أعلم فليس من علم أنه نبي كمن علم أنه رسول ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه سيد ولد آدم ولا من علم ذلك كمن علم ما خصه الله به من الشفاعة والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله صلى الله عليه وسلم وليس كل من جهل شيئا من خصائصه يكون كافرا بل كثير من المؤمنين لم

يسمع بكثير من فضائله وخصائصه فكذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافرا إذ كثير من المؤمنين لم يسمع كثيرا مما وصفه به رسوله وأخبر به عنه. فهذه الوجوه ونحوها مما تبين تفاضل الإيمان الذي في القلب ؛ وأما تفاضلهم في الأقوال والأعمال الظاهرة فلا تشتبه على أحد والله أعلم.

(فصل) (ص575)

إذا تبين هذا وعلم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة ؛ كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه زالت " الشبه العلمية " في هذه المسألة ولم يبق إلا " نزاع لفظي " في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم ؟ أو هو لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم ؟ و " حقيقة الأمر " أن اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا كما قد تقدم ؛ فإذا قرن اسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط. وإن أفرد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر وبهذا تأتلف النصوص. فقوله: {الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان}. أفرد لفظ الإيمان فدخل فيه الباطن والظاهر وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر} ذكره مع قوله صلى الله عليه وسلم: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة , وتصوم رمضان , وتحج البيت} فلما أفرده عن اسم الإسلام ذكر ما يخصه الاسم في ذاك الحديث مجردا عن الاقتران. وفي هذا الحديث مقرون باسم الإسلام وقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتى بالدين الذي هو عند الله الإسلام. وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} وقوله: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} وقوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث أنس الذي في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الإسلام

علانية والإيمـــــان في القلب}. ومن علم أن دلالة اللفظ تختلف بـالإفراد والاقـتران كما في اسم الفقـير والمسـكين والمعـروف والمنكر والبغي وغـير ذلك من الأســماء وكما في لغـات سـائر الأمم ؟ عربها وعجمها زاحت عنه الشـبهة في هـذا البـاب والله أعلم. فإن قال قائل ؛ اسم " الإيمان " إنما يتناول الأعمال مجازا قيل: " أولا " ليس هذا بأولى ممن قـال: إنما تخـرج عنه الأعمـال مجـازا بل هـذا أقـوى لأن خـروج العمل عنه إنما هو إذا كـان مقرونا باسم الإسـلام والعمل وأما دخـول العمل فيه فـإذا أفـرد كما في قولـه صـلى الله عليه وسـلم: {الإيمـان بضع وسـبعون شــــعبة أعلاها قــــول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمـان} فإنما يـدل مع الاقـتران أولى باسم المجاز مما يـدل عند التجريد والإطلاق. وقيل له " ثانيا " لا نـزاع في أن العمل الظـاهر هو فـرع عن البـاطن ومـوجب له ومقتضـاه ؛ لكن هل هو داخل في مسـمى الاسم وجـزء منه أو هو لازم للمسـمى كالشـرط المفـارق والمـوجب التـابع ؟ ومن المعلـوم أن الأسـماء الشـرعية والدينيـة: كاسم " الصـلاة " و " الزكاة " و " الحج " ونحو ذلك هي باتفاق الفقهـاء اسم لمجمـوع الصلاة الشرعية والحج الشرعي ومن قـال إن الاسم إنما يتنـاول مما يتناوله عند الإطلاق في اللغـة. وإن ما زاده الشـارع إنما هو زيـادة في الحكم وشـرط فيه لا داخل في الاسم كما قـال ذلك القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى ومن وافقهما على أن الشـرع زاد أحكاما شـرعية جعلها شـروطا في القصد , والأعمال والدعاء ليست داخلة في مسمى الحج والصيام والصلاة فقولـهم مرجـوح عند الفقهـاء وجمـاهير المنسـوبين إلى العلم ؛ ولهـذا كـان الجمهـور من أصـحاب الأئمة الأربعة على خلاف هـذا القول. فإذا قال قائل: إن اسم " الإيمـان " إنما يتنـاول مجـرد ما هو تصديق وأما كونه تصديقا بالله وملائكته وكتبه ورسله , وكون ذلك مستلزما لحب الله ورسوله ونحو ذلك هو شرط في الحكم لا داخل في الاسم إن لم يكن أضـعف من ذلك القــول فليس دونه في الضـعف فكـذلك من قـال: الأعمـال الظـاهرة لـوازم للباطن لا تدخل في الاسم عند الإطلاق يشبه قوله قـول هـؤلاء والشارع إذا قـرن بالإيمـان العمل فكما يقـرن بـالحج ما هو من تمامه كما إذا قـال من حج الـبيت وطـاف وسـعى ووقف بعرفة ورمى الجمار ؛ ومن صلى فقرأ وركع وسجد كما قال من صـام رمضان إيمانا واحتسابا ومعلوم أنه لم يكن صوما شـرعيا إن لم يكن إيمانا واحتسابا. وقـال: {من حج هـذا الـبيت فلم يـرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه} ومعلوم أن الـرفث الـذي

هو الجمـاع يفسد الحج والفسـوق ينقص ثوابه وكما قـال صـلى الله عليه وسلم: {من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا}. فلا يكـون مصـليا إن لم يسـتقبل قبلتنا في الصـلاة وكما قـال صـلى الله عليه وسـلم: {خمس صـلوات كتبهن الله على العبد في اليـــوم والليلة من حافظ عليهن كـــان له عهد عند الله أن يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له} فذكر المحافظ عليها ومعلوم أنه لا يكـون مصـليا لها على الوجه المـأمور إلا بالمحافظة عليهـا. ولكن بين أن الوعيد مشروط بذلك ولهذا لا يلـزم من عـدم المحافظة أن لا يصـليها بعد الـوقت فلا يكـون محافظا عليهـا. إذ المحافظة تسـتلزم فعلها كما قـال: {حـافظوا على الصـلوات والصـلاة الوسطى} نزلت لما أخرت العصر عام الخندق قـال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {ملأ الله أجـوافهم وقبـورهم نـارا كما شـغلونا عن الصـلاة الوسـطى حـتى غـابت الشـمس}. وبهـذا يظهر أن الاحتجاج بذلك على أن تـارك الصـلاة لا يكفر حجة ضـعيفة لكنه يدل على أن تارك المحافظة لا يكفر فإذا صلاها بعد الـوقت لم يكفر ؛ ولهذا جـاءت في " {الأمـراء الـذين يـؤخرون الصـلاة عن وقتها قيل: يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟ قال: لا ما صـلوا} وكـذلك لما سئل ابن مسعود عن قولـه تعالى: {أضاعوا الصلاة} قـال هو تأخيرها عن وقتها فقيل له: كنا نظن ذلك تركها فقـال: لو تركوها كانوا كفارا. والمقصود أنه قد يدخل في " الاسم المطلق " أمـور كثيرة وإن كانت قد تخص بالذكر. وقيل لمن قال: دخول الأعمـال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز نزاعك لفظي ؛ فإنك إذا سلمت أن هذه لـوازم الإيمـان الـواجب الـذي في القلب وموجباته كـان عـدم اللازم موجبا لعـدم الملـزوم فيلـزم من عـدم هـذا الظـاهر عدم الباطن فإذا اعـترفت بهـذا كـان الـنزاع لفظيا وإن قلت: ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه من أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبـات الظـاهرة قيل لك: فهـذا ينـاقض قولك إن الظـاهر لازم له ومـوجب له بل (قيل: حقيقة قولك إن الظاهر يقارن الباطن تـارة ويفارقه أخـرى فليس بلازم له ولا مـوجب ومعلـول له ولكنه دليل إذا وجد دل على وجـود البـاطن وإذ عـدم لم يـدل عدمه على العـدم وهـذا حقيقة قولـك. وهو أيضا خطأ عقلا كما هو خطأ شـرعا وذلك أن هذا ليس بدليل قاطع إذ هذا يظهر من المنافق فإنما يبقى دليلا في بعض الأمور المتعلقة بـدار الـدنيا كدلالة اللفظ على المعـنى وهـذا حقيقة قولك فيقـال لـك: فلا يكـون ما يظهر من الأعمـال ثمـــرة للإيمـــان البـــاطن ولا موجبا له ومن مقتضـــاه وذلك أن

المقتضي لهذا الظاهر إن كان هو نفس الإيمان الباطن لم يتوقف وجوده على غيره فإن ما كان معلولا للشيء وموجبا له لا يتوقف على غيره بل يلزم من وجوده وجوده فلو كان الظاهر موجب الإيمان الباطن لوجب أن لا يتوقف على غيره بل إذا وجد الموجب وجد الموجب. وأما إذا وجد معه تارة وعدم أخرى أمكن أن يكون من موجب ذلك الغير وأمكن أن يكون موقوفا عليهما جميعا فإن ذلك الغير إما مستقل بالإيمان أو مشارك للإيمان وأحسن أحواله أن يكون الظاهر موقوفا عليهما معا: على ذلك الغير وعلى الإيمان ؛ بل قد علم أنه يوجد بدون الإيمان ؛ كما في أعمال المنافق فحينئذ لا يكون العمل الظاهر مستلزما للإيمان ولا لازما له بل يوجد معه تارة ومع نقيضه تارة ولا يكون الإيمان علة له ولا موجبا ولا مقتضيا فيبطل حينئذ أن يكون دليلا عليه لأن الدليل لا بد أن يستلزم المدلول وهذا هو الحق فإن مجرد التكلم بالشهادتين ليس مستلزما للإيمان النافع عند الله. ولهذا {قال النبي صلى الله عليه وسلم: لسعد لما قال: هو مؤمن. قال أو مسلم ؟} وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار} فدل ذلك على أن مجرد إظهار الإسلام لا يكون دليلا على الإيمان في الباطن إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتي جئن مسلمات إلى الامتحان ودل ذلك على أنه بالامتحان والاختبار يتبين باطن الإنسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن ؛ كما في الحديث المرفوع: {إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله يقول: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله} الآية}. فإذا قيل: الأعمال الظاهرة تكون من موجب الإيمان تارة , وموجب غيره أخرى ؛ كالتكلم بالشهادتين: تارة يكون من موجب إيمان القلب وتارة يكون تقية كإيمان المنافقين قال تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}. ونحن إذا قلنا: هي من ثمرة الإيمان إذا كانت صادرة عن إيمان القلب لا عن نفاق قيل: فإذا كانت صادرة عن إيمان إما أن يكون نفس الإيمان موجبا لها وإما أن تقف على أمر آخر فإذا كان نفس الإيمان موجبا لها ثبت أنها لازمة لإيمان القلب معلولة لا تنفك عنه وهذا هو المطلوب ؛ وإن توقفت على أمر آخر كان الإيمان جزء السبب جعلها ثمرة للجزء الآخر ومعلولة له إذ حقيقة الأمر أنها معلولة لهما وثمرة لهما. فتبين أن الأعمال الظاهرة الصالحة لا تكون ثمرة للإيمان الباطن

ومعلولة له إلا إذا كان موجبا لها ومقتضيا لها وحينئذ فالموجب لازم لموجبه , والمعلول لازم لعلته وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة ؛ بل يلزم من وجود هذا كاملا [وجود هذا كاملا] كما يلزم من نقص هذا نقص هذا ؛ إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع. وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم والصالحي ومن اتبعهما في " الإيمان " كالأشعري في أشهر قوليه وأكثر أصحابه وطائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة: كالماتريدي ونحوه حيث جعلوه مجرد تصديق في القلب يتساوى فيه العباد وأنه إما أن يعدم , وإما أن يوجد لا يتبعض وأنه يمكن وجود الإيمان تاما في القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعا من غير إكراه وأن ما علم من الأقوال الظاهرة أن صاحبه كافر ؛ فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب في الأفعال000(بياض في الأصل) وأن الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للإيمان الباطن الذي في القلب ؛ بل يوجد إيمان القلب تاما بدونها فإن هذا القول فيه خطأ من وجوه: (أحدها): أنهم أخرجوا ما في القلوب من حب لله وخشيته ونحو ذلك أن يكون من نفس الإيمان. و (ثانيها) جعلوا ما علم أن صاحبه كافر - مثل إبليس وفرعون واليهود وأبي طالب وغيرهم - أنه إنما كان كافرا ؛ لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه في الباطن وهذا مكابرة للعقل والحس , وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزما لعدم العلم بأنه صادق ونحو ذلك. و (ثالثها): أنهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الله ورسوله , والتثليث وغير ذلك قد يكون مجامعا لحقيقة الإيمان الذي في القلب , ويكون صاحب ذلك مؤمنا عند الله حقيقة سعيدا في الدار الآخرة , وهذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام. و (رابعها): أنهم جعلوا من لا يتكلم بالإيمان قط مع قدرته على ذلك ولا أطاع الله طاعة ظاهرة مع وجوب ذلك عليه وقدرته يكون مؤمنا بالله تام الإيمان سعيدا في الدار الآخرة. وهذه الفضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهاء وغيرهم. و (خامسها): وهو يلزمهم ويلزم المرجئة أنهم قالوا: إن العبد قد يكون مؤمنا تام الإيمان إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين ولو لم يعمل خيرا لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث ولم يدع كبيرة إلا ركبها فيكون الرجل عندهم إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وهو

مصر على دوام الكـــذب والخيانة ونقض العهـــود لا يســـجد لله سجدة , ولا يحسن إلى أحد حسنة , ولا يــؤدي أمانة ولا يــدع ما يقـــــدر عليه من كـــــذب وظلم وفاحشة إلا فعلها وهو مع ذلك مؤمن تام الإيمان , إيمانه مثل إيمان الأنبياء , وهذا يلزم كل من لم يقل إن الأعمال الظاهرة من لوازم الإيمان الباطن فإذا قال: إنها من لوازمه وأن الإيمان الباطن يسـتلزم عملا صـالحا ظـاهرا كان بعد ذلك , قولـه: إن تلك الأعمال لازمة لمسـمى الإيمـان أو جـزء منه (نزاعا لفظيا كما تقـدم). و (سادسـها): أنه يلـزمهم أن من سـجد للصـليب والأوثــان طوعا وألقى المصـحف في الحش عمدا , وقتل النفس بغـير حق وقتل كل من رآه يصـلي وسـفك دم كل من يـــــراه يحج الـــــبيت ؛ وفعل ما فعلته القرامطة بالمسـلمين يجـوز أن يكـون مع ذلك مؤمنا وليا لله , إيمانه مثل إيمــان النبـيين والصـديقين ؛ لأن الإيمــان البـاطن إما أن يكــون منافيا لهــذه الأمــور وإما ألا يكــون منافيا ؛ فــإن لم يكن منافيا أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها إلا مع عدم الإيمان الباطن. وإن كان منافيا للإيمان الباطن كان ترك هذه من موجب الإيمان ومقتضاه ولازمه فلا يكون مؤمنا في الباطن الإيمــان الــواجب إلا من ترك هذه الأمــور فمن لم يتركها دل ذلك على فســاد إيمانه البــاطن وإذا كــانت الأعمــال والــتروك الظــاهرة لازمة للإيمــان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه وكـان من المعلـوم أنها تقـوى بقوته وتزيد بزيادته وتنقص بنقصانه فإن الشيء المعلــول لا يزيد إلا بزيــادة موجبه ومقتضــيه ولا ينقص إلا بنقصــان ذلك ؛ فــإذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيــادة البــاطن فيكــون دليلا على زيــادة الإيمــان البــاطن ونقصه لنقص البــــاطن فيكـــــون نقصه دليلا على نقص البــــاطن وهو المطلوب. وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تـبين له أن مـذهب السـلف هو المـذهب الحق ؛ الـذي لا عـدول عنه ؛ وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول وصـحيح المنقـول كســائر ما يلــزم الأقــوال المخالفة لأقــوال السـلف والأئمة والله أعلم. وقول جهم ومن وافقه: إن الإيمــان مجــرد العلم والتصـديق وهو بذلك وحده يستحق الثـواب والسـعادة يشـبه قـول من قـال من الفلاسفة المشائين وأتبــاعهم: إن سـعادة الإنسـان في مجـرد أن يعلم الوجود على ما هو عليه ؛ كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسـفة في " مسـائل الأسـماء والصـفات " و " مسـائل الجـبر والقــدر " متقاربــان وكــذلك في " مســائل الإيمــان " وقد بسـطنا الكلام على ذلك وبينا بعض ما فيه من الفســـاد في غـــير هـــذا الموضع , مثل أن العلم هو أحد قوتي النفس فــإن النفس لها "

قوتـان ": قــوة العلم والتصــديق , وقــوة الإرادة والعمل كما أن الحيوان له " قوتان ": قوة الحس , وقـوة الحركة بـالإرادة. وليس صــلاح الإنســان في مجــرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريــده ويتبعه كما أنه ليس سعادته في أن يكـون عالما بالله مقـرا بما يسـتحقه دون أن يكـون محبا لله عابـدا لله مطيعا لله بل أشد الناس عذابا يـوم القيامة عـالم لم ينفعه الله بعلمه ؛ فـإذا علم الإنســـان الحق وأبغضه وعـــاداه كـــان مســـتحقا من غضب الله وعقابه ما لا يستحقه من ليس كذلك ؛ كما أن من كـان قاصـدا للحق طالبا له - وهو جاهل بـــالمطلوب وطريقه - كـــان فيه من الضلال وكان مستحقا من اللعنة - التي هي البعد عن رحمة الله - ما لا يســـتحقه من ليس مثله ؛ ولهـــذا أمرنا الله أن نقـــول: {اهـدنا الصـراط المسـتقيم} {صـراط الـذين أنعمت عليهم غـير المغضــوب عليهم ولا الضــالين}. و " المغضــوب عليهم " علمــوا الحق فلم يحبـوه ولم يتبعـوه و " الضـالون " قصـدوا الحق لكن بجهل وضــلال به وبطريقه فهــذا بمنزلة العــالم الفــاجر , وهــذا بمنزلة العابد الجاهل وهــذا حــال اليهــود فإنه مغضــوب عليهم , وهذا حال النصارى فإنهم ضالون. كما ثبت عن النــبي صــلى الله عليه وسلم أنه قال: {اليهود مغضوب عليهم , والنصارى ضالون}. و " المتفلسفة " أسـوأ حـالا من اليهـود والنصـارى فـإنهم جمعـوا بين جهل هؤلاء وضلالهم وبين فجـور هـؤلاء وظلمهم فصـار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصــارى حيث جعلــوا السعادة في مجرد أن يعلموا الحقائق حتى يصـير الإنسـان عالما معقـــولا مطابقا للعـــالم الموجـــود ثم لم ينـــالوا من معرفة الله وأسـمائه وصـفاته وملائكته وكتبه ورسـله وخلقه وأمـره إلا شـيئا نــزرا قليلا فكـان جهلهم أعظم من علمهم , وضـلالهم أكـبر من هـداهم وكـانوا مـترددين بين الجهل البسـيط والجهل المـركب ؛ فـــإن كلامهم في الطبيعـــات والرياضـــيات لا يفيد كمـــال النفس وصلاحها وإنما يحصل ذلك بـالعلم الإلهي وكلامهم فيـه: لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سـهل فـيرتقى ولا سـمين فينتقــل. فـــــإن كلامهم في " واجب الوجـــــود " ما بين حق قليل وباطل فاسد كثـير وكـذلك في " العقـول " و " النفـوس " الـتي تـزعم أتبـاعهم من أهل الملل أنها الملائكة الـتي أخـبرت بها الرسل ؛ وليس الأمر كــذلك بل زعمهم أن هــؤلاء هم الملائكة من جنس زعمهم أن " واجب الوجود " هو الوجـود المطلق بشـرط الإطلاق مع اعـــترافهم بـــأن المطلق بشـــرط الإطلاق لا يكـــون إلا في الأذهان وكـذلك كلامهم في العقـول والنفـوس يعـود عند التحقيق إلى أمـور مقـدرة في الأذهـان لا حقيقة لها في الأعيـان ثم فيه

من الشرك بالله وإثبات رب مبدع لجميع العالم سواه - لكنه معلول له - وإثبات رب مبدع لكل ما تحت فلك القمر هو معلول الرب فوقه , ذلك الرب معلول لرب فوقه ما هو أقبح من كلام النصارى في قولهم: إن المسيح ابن الله بكثير كثير كما بسط في غير هذا الموضع. وليس لمقدميهم كلام في " النبوات " ألبتة ومتأخروهم حائرون فيها منهم من يكذب بها ؛ كما فعل ابن زكريا الرازي وأمثاله مع قولهم بحدوث العالم. أثبتوا القدماء الخمسة وأخذوا من المذاهب ما هو من شرها وأفسدها ؛ ومنهم من يصدق بها مع قوله بقدم العالم كابن سينا وأمثاله لكنهم يجعلون النبي بمنزلة ملك عادل فيجعلون النبوة كلها من جنس ما يحصل لبعض الصالحين من الكشف والتأثير والتخيل فيجعلون خاصة النبي " ثلاثة أشياء ": قوة الحدس الصائب التي يسمونها القوة القدسية وقوة التأثير في العالم , وقوة الحس التي بها يسمع ويبصر المعقولات متخيلة في نفسه فكلام الله عندهم هو ما في نفسه من الأصوات وملائكته هي ما في أنفسهم من الصور والأنوار وهذه الخصال تحصل لغالب أهل الرياضة والصفا ؛ فلهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة. وصار كل من سلك سبيلهم كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وأمثالهما - يطلب النبوة ويطمع أن يقال له قم فأنذر هذا يقول: لا أموت حتى يقال لي: قم فأنذر وهذا يجاور بمكة ويعمد إلى غار حراء ويطلب أن ينزل عليه فيه الوحي كما نزل على المزمل والمدثر مثله وكل منهما , ومن أمثالهما يسعى بأنواع السيمياء التي هي من السحر ويتوهم أن معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيميائي. ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها - لعلمه بقول الصادق المصدوق: {لا نبي بعدي} أو غير ذلك - كابن عربي وأمثاله طلب ما هو أعلى من النبوة وأن خاتم الأولياء أعظم من خاتم الأنبياء وأن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة والنبي يأخذ بواسطة الملك , وبني ذلك على أصل متبوعيه الفلاسفة فإن عندهم: ما يتصور في نفس النبي أو الولي هي الملائكة: من الأشكال النورانية الخيالية " فالملائكة " عندهم ما يتخيله في نفسه. و " النبي " عندهم ما يتلقى بواسطة هذا التخيل و " الولي " يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل ولا ريب أن من تلقى المعارف بلا تخيل كان أكمل ممن تلقاها بتخيل. فلما اعتقدوا في النبوة ما يعتقده هؤلاء المتفلسفة صاروا يقولون: إن الولاية أعظم من النبوة كما يقول كثير من الفلاسفة: إن الفيلسوف أعظم من النبي ؛ فإن هذا قول الفارابي ومبشر بن فاتك وغيرهما , وهؤلاء يقولون النبوة

أفضل الأمـور عند الجمهـور ؛ لا عند الخاصـة. ويقولـون: خاصة النبي جودة التخييل والتخيل فجاء هؤلاء الـذين أخرجـوا الفلسـفة في قـالب الولاية وعـبروا عن المتفلسف بـالولي وأخـذوا معـاني الفلاسـفة وأبرزوها في صـورة المكاشـفة والمخاطبة وقـالوا: إن الولي أعظم من النبي لأن المعاني المجردة يأخـذها عن الله بلا واسـطة تخيل لشـيء في نفسه , والنـبي يأخـذها بواسـطة ما يتخيل في نفسه من الصـور والأصـوات ولم يكفهم هـذا البهتـان حـتى ادعـوا أن جميع الأنبيـاء والرسل يسـتفيدون العلم بالله من مشـكاة خـاتم هـؤلاء الأوليـاء الـذي هو من أجهل الخلق بالله وأبعـدهم عن دين الله , والعلم بالله هو عنـدهم بأنه " الوجـود المطلق " الساري في الكائنات فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجـود. وحقيقة هـذا القـول قـول الدهرية الطبيعية الـذين ينكرون أن يكون للعالم مبـدع أبدعه هو واجب الوجـود بنفسه ؛ بل يقولون: العالم نفسه واجب الوجود بنفسه. فحقيقة قول هؤلاء شر من قـول الدهرية الإلهـيين وهو يعـود عند التحقق إلى قـول الدهرية الطبيعـيين وقد حـدثونا: أن ابن عـربي تنـازع هو والشـيخ أبو حفص السـهروردي: هل يمكن وقت تجلي الحق لعبد مخاطبة له أم لا ؟ فقال الشيخ أبو حفص السـهروردي: نعم يمكن ذلـك. فقـال ابن عـربي: لا يمكن ذلك وأظن الكلام كـان في غيبة كل منهما عن صـاحبه فقيل لابن عـربي: إن السـهروردي يقـول كـذا وكذا. فقـال: مسـكين نحن تكلمنا في مشـاهدة الـذات وهو يتكلم في مشـاهدة الصـفات. وكـان كثـير من أهل التصـوف والسـلوك والطـالبين لطريق التحقيق والعرفـان - مع أنهم يظنـون أنهم متـابعون للرسل وأنهم متقـون للبـدع المخالفة له - يقولـون هـذا الكلام ويعظمونه ويعظمـون ابن عـربي لقوله مثل هـذا ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه على أصـله الفاسد في الإلحـاد الـذي يجمع بين التعطيل والاتحاد ؛ فإن حقيقة الرب عنده وجود مجرد لا اسم له ولا صفة ولا يمكن أن يرى في الدنيا ولا في الآخـرة ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك ولكن يرى ظاهرا في المخلوقـات متجليا في المصـنوعات وهو عنـده غـير وجـود الموجـودات وشـبهه , وتـارة بظهـور الكلي في جزئياته كظهـور الجنس في أنواعه والنـوع في الخاصة كما تظهر الحيوانية في كل حيوان والإنسانية في كل إنسان. وهذا بناه على غلط أسلافه " المنطقيين اليونانيين " حيث ظنوا أن الموجـودات العينية يقارنها جواهر عقلية بحسب ما تحمل لها من الكليـات فيظنـون أن في الإنسان المعين إنسـانا عقليا وحيوانا عقليا وناطقا عقليا وحساسا عقليا وجسـما عقليا وذاك هو الماهية الـتي يعـرض لها الوجـود

وتلك الماهية مشتركة بين جميع المعينات وهذا الكلام له وقع عند من لم يفهمه ويتدبره. فإذا فهم حقيقته تبين له أنه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء , وإنما ذلك لمخالفته للحس والعقل وإنما أتى فيه هؤلاء من حيث إنهم تصوروا في أنفسهم معاني " كلية مطلقة " فظنوا أنها موجودة في الخارج. فضلالهم في هذا عكس ضلالهم في أمر الأنبياء شاهدت أمورا خارجة عن أنفسهم , فزعم هؤلاء الملاحدة أن تلك كانت في أنفسهم. وهؤلاء الملاحدة شهدوا في أنفسهم أمورا " كلية مطلقة " فظنوا أنها في الخارج وليست إلا في أنفسهم فجعلوا ما في أنفسهم في الخارج وليس فيه وجعلوا ما أخبرت به الأنبياء في أنفسهم وإنما هو في الخارج فلهذا كانوا مكذبين بالغيب التي أخبرت به الأنبياء ثم جعلوا وجود الرب الخالق للعالمين البائن عن مخلوقاته أجمعين هو من جنس وجود الإنسانية في الأناسي والحيوانية في الحيوان أو ما أشبه ذلك كوجود الوجود في الثبوت - عند من يقول المعدوم شيء - فإنهم أرادوا أن يجعلوه شيئا موجودا في المخلوقات مع مغايرته لها فضربوا له مثلا تارة بالكليات وتارة بالمادة والصورة وتارة بالوجود المغاير للثبوت وإذا مثلوه بالمحسوسات مثلوه بالشعاع في الزجاج أو بالهواء في الصوفة فضربوا لرب العالمين الأمثال ؛ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ؛ وهم في هذه الأمثال ضالون من وجوه: (أحدها): إنما مثلوا به من المادة مع الصورة والكليات مع الجزئيات والوجود مع الثبوت: كل ذلك يرجع عند التحقيق إلى شيء واحد لا شيئين فجعلوا الواحد اثنين كما جعلوا الاثنين واحدا في مثل صفات الله يجعلون العلم هو العالم , والعلم هو المعلوم والعلم هو القدرة , والعلم هو الإرادة وأنواع هذه الأمور التي إذا تدبرها العاقل تبين له أن هؤلاء من أجهل الناس بالأمور الإلهية , وأعظم الناس قولا للباطل ؛ مع ما في نفوسهم ونفوس أتباعهم من الدعاوى الهائلة الطويلة العريضة كما يدعي إخوانهم القرامطة الباطنية أنهم أئمة معصومون مثل الأنبياء وهم من أجهل الناس وأضلهم وأكفرهم. (الثاني): أنهم على كل تقدير من هذه التقديرات يجعلون وجوده مشروطا بوجود غيره الذي ليس هو مبدعا له ؛ فإن وجود الكليات في الخارج مشروط بالجزئيات , ووجود المادة مشروط بالصورة وكذلك بالعكس , ووجود الأعيان مشروط بثبوتها المستقر في العدم ؛ فيلزمهم على كل تقدير أن يكون واجب الوجود مشروطا بما ليس هو من مبدعاته , وما كان وجوده موقوفا على غيره الذي ليس هو مصنوعا له لم يكن واجب الوجود بنفسه وهذا بين. (الثالث) أن

هذا الكلام يعـود عند التحقيق إلى أن يكـون وجـود الخـالق عين وجود المخلوقات وهم يصرحون بذلك ؛ لكن يدعون المغايرة بين الوجود والثبوت: أو بين الوجود والماهية: وبين الكل والجـزء , وهو المغايرة بين المطلق والمعين ؛ فلهذا كانوا يقولون: بالحلول. تارة يجعلون الخالق حـالا في المخلوقـات , وتـارة محلا لها وإذا حقق الأمر عليهم بعـدم المغـايرة كـان حقيقة قولــهم أن الخـالق هو نفس المخلوقات فلا خالق ولا مخلوق وإنما العالم واجب الوجود بنفســه. (الرابــع): أنهم يقــرون بما يزعمونه من " التوحيد " عن التعدد في صـفاته الواجبة ؛ وأسـمائه ؛ وقيـام الحـوادث به وعن كونه جســـما ؛ أو جـــوهرا ؛ ثم هم عند التحقيق يجعلونه عين الأجســام الكائنة الفاســدة المســتقذرة ويصــفونه بكل نقص كما صـرحوا بـذلك قـالوا: ألا تـرى الحق يظهر بصـفات المحـدثات ؟ وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص ؛ وبصفات الذم , وقـالوا: العلي لذاته هو الـذي يكـون له الكمـال الـذي يسـتغرق به جميع الأمــور الوجودية والنسب العدمية ســواء كــانت محمــودة عرفا وعقلا وشـرعا ؛ أو مذمومة عرفا وعقلا وشـرعا , وليس ذلك إلا لمسـمى الله خاصة فهو متصف عنـدهم بكل صـفة مذمومة كما هو متصف بكل صفة محمـودة وقد بسط الكلام على هـؤلاء في غـير هـذا الموضع فـإن أمـرهم أعظم من أن يبسط هنـا. ولكن (المقصـــود التنبيه على تشـــابه رؤوس الضـــلال) حـــتى إذا فهم المؤمن قول أحـدهم أعانه على فهم قـول الآخر ؛ واحـترز منهم , وبين ضلالهم لكثرة ما أوقعـوا في الوجـود من الضـلالات. فـابن عربي بزعمـه: إنما تجلي الـذات عنـده شـهود مطلق ؛ هو وجـود الموجودات ؛ مجـردا مطلقا لا اسم له ولا نعت ومعلـوم أن من تصور هذا لم يمكن أن يحصل له عنه خطـاب ؛ فلهـذا زعم أن عند تجلي الـذات لا يحصل خطـاب. وأما أبو حفص السـهروردي فكان أعلم بالسـنة وأتبع للسـنة من هـذا وخـيرا منه ؛ وقد رأى أن ما جـاءت به الأحـاديث من أن الله يتجلى لعبـاده ويخـاطبهم حين تجليه لهم فآمن بذلك ؛ لكن ابن عربي في فلسفته أشـهر من هذا في سنته. ولهذا كـان أتباعهما يعظمـون ابن عـربي عليه مع إقــرارهم بـأن السـهروردي أتبع للسـنة كما حـدثني الشـيخ الملقب بحسـام الـدين القـادم السـالك طريق ابن حموية الـذي يلقبه أصـحابه " سـلطان الأقطـاب " ؛ وكـان عنـده من التعظيم لابن عـــربي وابن حموية ؛ والغلو فيهما أمر عظيم فـــبينت له كثـيرا مما يشـتمل عليه كلامهما من الفسـاد والإلحـاد والأحـاديث المكذوبة على النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم وجــرى في ذلك فصـــول ؛ لما كـــان عنـــده من التعظيم مع عـــدم فهم حقيقة

أقوالهما وما تضمنته من الضلالات. وكان ممن حدثني عن شـيخه الطاووسي الـذي كـان بهمـدان عن سـعد الـدين بن حموية أنه قـال: محـيي الـدين ابن عـربي بحر لا تكـدره الـدلاء ؛ لكن نـور المتابعة النبوية على وجه الشيخ شهاب الدين السـهروردي شـيء آخر فقلت له: هذا كما يقال: كان هؤلاء أوتوا [من] ملك الكفار ملكا عظيما. لكن نور الإسلام الذي على شهاب غـازي صـاحب " ميافا رقين " شيء آخر. فإنهم كانوا يعظمون ابن عــربي ؛ وذلك لأن الشــيخ شــهاب الــدين لم يكن متمكنا من معرفة الســنة ومتابعتها وتحقيق ما جـاءت به الرسل ؛ كتمكن ابن عــربي في طريقه الـتي سـلكها وجمع فيها بين الفلسـفة والتصـوف. وهـؤلاء إنما يقطع دابـرهم المباينة بين الخـالق والمخلـوق وإثبـات تعينه منفصلا عن المخلوق ترفع إليه الأيدي بالـدعاء وإليه كـان معـراج خاتم الأنبياء وقد ذكر السهروردي في عقيدته المشهورة قولـه: " بلا إشارة ولا تعيين " وهذه هي التي اسـتطال بها عليه هـؤلاء ؛ فإنه مـتى نفيت الإشـارة والتعـيين لم يبق إلا العـدم المحض ؛ والتعطيل أو الإلحـاد والوحـدة والحلـول. وابن سـبعين وأمثاله من هؤلاء الملاحدة يقولون هكذا: لا إشارة ولا تعيين بل عين ما ترى ذات لا ترى وذات لا تـرى عين ما تـرى ويقولـون في أذكـارهم: ليس إلا الله بـدل قـول المسـلمين: لا إله إلا الله لأن معتقـدهم أنه وجود كل موجود ؛ فلا موجود إلا هو ؛ والمسـلمون يعلمـون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ؛ وأنه ليس هو المخلوقات ولا جـزءا منها ؛ ولا صـفة لها ؛ بل هو بـائن عنها ويقولـون إنه هو الإله الذي يستحق العبادة دون ما سـواه من الموجـودات فلا إله إلا هو ؛ كما قال تعـالى: {فلا تـدع مع الله إلها آخر فتكـون من المعـذبين} وكما قـال تعـالى: {قل أفغـير الله تـأمروني أعبد أيها الجاهلون} وقـال: {قل أغـير الله أتخذ وليا فـاطر السـماوات والأرض}. وهؤلاء الملاحدة ما عندهم غـير يمكن أن يعبد ولا غـير يمكن أن يتخذ وليا ولا إلها ؛ بل هو العابد والمعبود ؛ والمصـلي والمصـلى له ؛ كما قـال شـاعرهم ابن الفـارض في قصـيدته " نظم السلوك ": لها صلواتي بالمقـام أقيمها وأشـهد فيها أنها لي صلت كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة إلى قولـه: وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغـيري في أدا كل ركعة إلي رسـولا كنت مـني مرسلا وذاتي بآيـاتي علي استدلت وقولـه: ومـازلت إياها وإيـاي لم تـزل ولا فـرق بل ذاتي لــذاتي أحبت فهــؤلاء " الجهمية " من المتكلمة والصــوفية في قولـهم: إن الإيمان هو مجرد المعرفة والتصديق يقولون: المعروف هو الموجـود الموصـوف بالسـلب والنفي كقولــهم: لا هو داخل

العالم ؛ ولا خارجه ؛ ولا مباين العالم ولا محايث ثم يعودون فيجعلونه حالا في المخلوقات أو محلا لها أو هو عينها ؛ أو يعطلونه بالكلية ؛ فهم في هذا نظير المتفلسفة المشائين: الذين يجعلون كمال الإنسان بالعلم ؛ و " العلم الأعلى " - عندهم - و " الفلسفة الأولى " - عندهم - النظر في الوجود ولواحقه ويجعلون واجب الوجود وجودا مطلقا بشرط الإطلاق لكن أولئك يغيرون العبارات ويعبرون بالعبارات الإسلامية القرآنية عن الإلحادات الفلسفية واليونانية وهذا كله قد قرر ؛ وبسط القول فيه في غير هذا الموضع.

فصل (ص597)

أول ما في الحديث سؤاله عن " الإسلام ": فأجابه بأن {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت} وهذه الخمس هي المذكورة في حديث ابن عمر المتفق عليه {بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا}. وهذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فرض الله الحج فلهذا ذكر الخمس: وأكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج في حديث وفد عبد القيس {آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس}. وحديث وفد عبد القيس من أشهر الأحاديث وأصحها. وفي بعض طرق البخاري لم يذكر الصيام لكن هو مذكور في كثير من طرقه وفي مسلم وهو أيضا مذكور في حديث أبي سعيد الذي ذكر فيه قصة وفد عبد القيس رواه مسلم في صحيحه عنه واتفقا على حديث ابن عباس وفيه أنه أمرهم بإيتاء الخمس من المغنم ؛ والخمس إنما فرض في غزوة بدر , وشهر رمضان فرض قبل ذلك. ووفد عبد القيس من خيار الوفد الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وقدومهم على النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل فرض الحج وقد قيل قدموا سنة الوفود: سنة تسع والصواب أنهم قدموا قبل ذلك فإنهم قالوا إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر - يعنون أهل نجد - وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام وسنة تسع كانت العرب قد ذلت وتركت الحرب وكانوا بين مسلم أو معاهد خائف لما فتح الله مكة ثم هزموا هوازن يوم حنين وإنما كانوا ينتظرون بإسلامهم فتح مكة وقد بعث

النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه أميرا على الحج سنة تسع وأردفه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ لتنفيذ العهود التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين العرب إلا أنه أجلهم أربعة أشهر من حين حجة أبي بكر وكانت في ذي القعدة. وقد قال تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين} الآية وهذه الأربعة التي أجلوها الأربعة الحرم. ولهذا غزا النبي صلى الله عليه وسلم النصارى بأرض الروم عام تبوك سنة تسع قبل إرسال أبي بكر أميرا على الموسم وإنما أمكنه غزو النصارى لما اطمأن من جهة مشركي العرب وعلم أنه لا خوف على الإسلام منهم ؛ ولهذا لم يأذن لأحد ممن يصلح للقتال في التخلف فلم يتخلف إلا منافق: أو الثلاثة الذين تيب عليهم أو معذور ولهذا لما {استخلف عليا على المدينة عام تبوك طعن المنافقون فيه لضعف هذا الاستخلاف وقالوا: إنما خلفه لأنه يبغضه. فاتبعه علي وهو يبكي فقال: أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي}. وكان قبل ذلك يستخلف على المدينة من يستخلفه وفيها رجال من أهل القتال وذلك لأنه لم يكن حينئذ بأرض العرب لا بمكة ولا بنجد ونحوهما من يقاتل أهل دار الإسلام - مكة والمدينة وغيرهما - ولا يخيفهم: ثم لما رجع من تبوك أقر أبا بكر على الموسم يقيم الحج والصلاة ويأمر ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وأتبعه بعلي لأجل نقض العهود ؛ إذ كانت عادة العرب أن لا يقبلوا إلا من المطاع الكبير أو من رجل من أهل بيته. و (المقصود): أن هذا يبين أن قدوم وفد عبد القيس كان قبل ذلك وأما " حديث ضمام " فرواه مسلم في صحيحه عن {أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل يسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك قال: صدق قال: فمن خلق السماء ؟ قال: الله قال: فمن خلق الأرض ؟ قال: الله قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال: الله قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبال آلله أرسلك قال: نعم قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا قال: صدق قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا قال: صدق قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال: صدق ثم ولى الرجل وقال: والذي

بعثك بـالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقـال: رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لئن صـدق ليـدخلن الجنـة}. {وعن أنس قـال: بينما نحن جلـوس مع النـبي صـلى الله عليه وسـلم في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ؛ ثم قال لهم: أيكم محمد ؟ - والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهـرانيهم - فقلنـا: هـذا الرجل الأبيض المتكئ ؟ فقـال له الرجل: ابن عبد المطلب ؟ فقال له: النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك فقال الرجل: للنبي صلى الله عليه وسلم إنني سـائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ؛ فقال: سل عما بدا لك ؟ فقال: أسألك بربك ورب من قبلك ؟ آلله أرسـلك إلى الناس كلهم ؟ فقـال: اللهم نعم وذكر أنه سـأله عن الصـلاة والزكاة ؛ ولم يـذكر الصـيام والحج فقـال: الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قـومي ؛ وأنا ضـمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر}. هذان الطريقان في الصـحيحين لكن البخـاري لم يذكر في الأول الحج ؛ بل ذكر الصـيام ؛ والسـياق الأول أتم ؛ والناس يجعلون الحديثين حديثا واحدا. ويشـبه - والله أعلم - أن يكـون البخـاري رأى أن ذكر الحج فيه وهما لأن سـعد بن أبي بكر ؛ هم من هـوازن وهم أصـهار رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهـوازن كـانت معهم وقعة حـنين بعد فتح مكة فأسـلموا كلهم بعد الوقعة ودفع إليهم النبي صلى الله عليه وسلم النسـاء والصبيان بعد أن قسـمها على المعسـكر واسـتطاب أنفسـهم في ذلك فلا تكـون هـذه الزيـارة إلا قبل فتح مكة , والحج لم يكن فـرض إذ ذاك. وحـديث طلحة بن عبيد الله ليس فيه إلا الصـلاة والزكاة والصيام وقد قيل: إنه حـديث ضـمام وهو في الصـحيحين عن طلحة بن عبيد الله قـال: {جـاء رجل إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يسـأل عن الإسـلام فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خمس صلوات في اليوم والليلة قال: هل علي غير ذلك ؟ قـال: لا إلا أن تطوع. قال: وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسـلم الزكـاة قـال: هل علي غيرها قـال: لا إلا أن تطـوع قـال فـأدبر الرجل وهو يقـول: والله لا أزيد على هـذا ولا أنقص منه فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: أفلح إن صـدق} وليس في شيء من طرقه ذكر الحج بل فيه ذكر الصلاة والزكـاة والصـيام كما في حـــديث وفد عبد القيس. وفي الصـــحيحين أيضا " {عن أبي هريـرة أن أعرابيا جـاء إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال: يا رسـول الله دلـني على عمل إذا عملته دخلت

الجنة فقال تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة , وتؤدي الزكاة المفروضة , وتصوم رمضان قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا} وهذا يحتمل أن يكون ضماما وقد جاء في بعض الأحاديث ذكر الصلاة والزكاة فقط كما في الصحيحين {عن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال: فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد وفق أو لقد هدي ثم قال: كيف قلت ؟ قال: فأعاد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتصل الرحم فلما أدبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تمسك بما أمر به دخل الجنة} هذه الألفاظ في مسلم. وقد جاء ذكر الصلاة والصيام في حديث النعمان بن قوقل رواه مسلم {عن جابر بن عبد الله قال: سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم قال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئا أدخل الجنة ؟ قال: نعم قال: والله لا أزيد على ذلك شيئا}. وفي لفظ " أتى النبي صلى الله عليه وسلم النعمان بن قوقل. وحديث النعمان هذا قديم ؛ فإن النعمان بن قوقل قتل قبل فتح مكة قتله بعض بني سعد بن العاص كما ثبت ذلك في الصحيح فهذه الأحاديث خرجت جوابا لسؤال سائلين. أما حديث ابن عمر فإنه مبتدأ وأحاديث الدعوة والقتال فيها الصلاة والزكاة كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله}. وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم عن جابر {قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها}. فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال. فكان من فقه أبي بكر أنه فهم من ذلك الحديث المختصر أن القتال على الزكاة قتال على حق المال وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مراده بذلك في اللفظ المبسوط الذي رواه ابن عمر.

والقــرآن صــريح في موافقة حــديث ابن عمر كما قــال تعــالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكـاة فخلـوا سـبيلهم}. وحـديث معــاذ لما بعثه إلى اليمن لم يــذكر فيه النــبي صــلى الله عليه وسلم إلا الصلاة والزكاة. فلما كان في بعض الأحاديث ذكر بعض الأركـان دون بعض أشـكل ذلك على بعض النـاس. فأجـاب بعض الناس بـأن سـبب هـذا أن الـرواة اختصر بعضـهم الحـديث الـذي رواه ؛ وليس الأمر كـذلك ؛ فـإن هـذا طعن في الـرواة ونسـبة لهم إلى الكذب إذ هذا الذي ذكـره إنما يقع في الحـديث الواحد مثل حـديث وفد عبد القيس حيث ذكر بعضـهم الصـيام وبعضـهم لم يذكره , وحديث ضمام حيث ذكر بعضهم الخمس وبعضـهم لم يذكره , وحديث النعمان بن قوقل حيث ذكر بعضـهم فيه الصـيام , وبعضهم لم يـذكره فبهـذا يعلم أن أحد الـراويين اختصر البعض أو غلط في الزيادة. فأما الحـديثان المنفصـلان فليس الأمر فيهما كذلك لا سيما والأحاديث قد تواترت بكـون الأجوبة كـانت مختلفة وفيهما ما بين قطعا أن النبي صـلى الله عليه وسـلم تكلم بهـذا تــارة وبهــذا تــارة والقــرآن يصــدق ذلك فــإن الله علق الأخــوة الإيمانية في بعض الآيــات بالصــلاة والزكــاة فقط كما في قولـه تعـالى: {فـإن تـابوا وأقـاموا الصـلاة وآتـوا الزكـاة فـإخوانكم في الــدين} كما أنه علق تــرك القتــال على ذلك في قولـه تعــالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} وقد تقــدم حديث ابن عمر الذي في الصحيحين موافقا لهـذه الآية و " أيضا " فإن في حديث وفد عبد القيس ذكر خمس المغنم لأنهم كـانوا طائفة ممتنعة يقاتلون ومثل هذا لا يذكر جواب سؤال سـائل بما يجب عليه في حق نفسه ولكن عن هـذا " جوابـان ": (أحـدهما): أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أجـاب بحسب نـزول الفـرائض وأول ما فرض الله الشـهادتين ثم الصـلاة فإنه أمر بالصـلاة في أول أوقات الوحي ؛ بل قد ثبت {في الصحيح أن أول ما أنــزل عليه: {اقرأ باسم ربك الـذي خلـق} {خلق الإنسـان من علـق} - إلى قولـه - {علم الإنسـان ما لم يعلم} ثم أنــزل عليه بعد ذلك {يا أيها المــدثر} {قم فأنــذر}} فهــذا الخطــاب إرســال له إلى النــاس والإرســال بعد الإنبــاء ؛ فــإن الخطــاب الأول ليس فيه إرسال وآخر سورة اقـرأ {واسـجد واقـترب}. فـأول السـورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود والصلاة مؤلفة من أقــوال وأعمــال فأفضل أقوالها القــراءة وأفضل أعمالها الســجود والقــراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع لـه. وقد روي أن الصـلاة أول ما فرضت كـــانت ركعـــتين بالغـــداة وركعـــتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج وكانت ركعتين ركعتين ؛ فلما هـاجر أقـرت

صلاة السفر ؛ وزيد في صلاة الحضر وكانت الصلاة تكمل شيئا بعد شيء فكانوا أولا يتكلمون في الصلاة ولم يكن فيها تشهد ثم أمروا بالتشهد ؛ وحرم عليهم الكلام ؛ وكذلك لم يكن بمكة لهم أذان. وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة ؛ وكذلك صلاة الجمعة والعيد ؛ والكسوف ؛ والاستسقاء وقيام رمضان وغير ذلك. إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة. وأمروا بالزكاة ؛ والإحسان في مكة أيضا ؛ ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة. وأما " صوم شهر رمضان " فهو إنما فرض في السنة الثانية من الهجرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات. وأما " الحج " فقد تنازع الناس في وجوبه ؛ فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية باتفاق الناس قالوا: وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة أيضا لأن الأمر بالإتمام يتضمن الأمر بابتداء الفعل وإتمامه. وقال الأكثرون: إنما وجب الحج متأخرا قيل سنة تسع ؛ وقيل سنة عشر وهذا هو الصحيح ؛ فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت} وهذه الآية في آل عمران في سياق مخاطبته لأهل الكتاب , وصدر آل عمران وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى وناظروه في أمر المسيح ؛ وهم أول من أدى الجزية من أهل الكتاب وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة التي شرع فيها الجزية وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك التي غزا فيها النصارى لما أمر الله بذلك في قوله: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث وإنما جاء في الأحاديث المتأخرة. وقد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس وكان قدومهم قبل فتح مكة على الصحيح كما قد بيناه وقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر يعنون بذلك أهل نجد: من تميم وأسد وغطفان لأنهم بين البحرين وبين المدينة وعبد القيس هم من ربيعة ليسوا من مضر ولما فتحت مكة زال هذا الخوف ولما قدم عليه وفد عبد القيس أمرهم بالصلاة والزكاة ؛ وصيام رمضان ؛ وخمس المغنم ؛ ولم يأمرهم بالحج وحديث ضمام قد تقدم أن البخاري لم يذكر فيه الحج كما لم يذكره في حديث طلحة وأبي هريرة وغيرهما مع قولهم: إن هذه الأحاديث هي من قصة ضمام وهذا ممكن ؛ مع

أن تاريخ قدوم ضمام هذا ليس متيقنا. وأما قولـه: {وأتمـوا الحج والعمـرة للـه} فليس في هـذه الآية إلا الأمر بإتمـام ذلك وذلك يـوجب إتمـام ذلك على من دخل فيه فـنزل الأمر بـذلك لما أحرموا بـالعمرة عـام الحديبية ثم أحصـروا فـأمروا بالإتمـام وبين لهم حكم الإحصـار ولم يكن حينئذ قد وجب عليهم لا عمـرة ولا حج. (الجـواب الثـاني): أنه كـان يـذكر في كل مقـام ما يناسـبه فيـذكر تـارة الفـرائض الظـاهرة الـتي تقاتل على تركها الطائفة الممتنعة كالصلاة والزكاة ويذكر تارة ما يجب على السـائل فمن أجابه بالصـلاة والصـيام لم يكن عليه زكـاة يؤديها ومن أجابه بالصلاة والزكاة والصيام: فإما أن يكون قبل فرض الحج وهذا هو الـواجب في مثل حـديث عبد القيس ونحـوه وإما أن يكـون السائل ممن لا حج عليه. وأما الصـلاة والزكـاة فلهما شـأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهـذا ذكر الله تعـالى في كتابه القتـال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ؛ بخلاف الصوم فإنه أمر بـاطن وهو مما ائتمن عليه النـاس فهو من جنس الوضـوء والاغتسـال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ؛ فإن الإنسان يمكنه ألا ينوي الصوم وأن يأكل سـرا كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته وأما الصـلاة والزكاة فأمر ظاهر لا يمكن الإنسان بين المؤمـنين أن يمتنع من ذلـك. وهو صـلى الله عليه وسـلم يـذكر في الإسـلام الأعمـال الظـاهرة الـتي يقاتل عليها النـاس ويصـيرون مسـلمين بفعلها ؛ فلهـذا علق ذلك بالصـلاة والزكـاة دون الصـيام وإن كـان الصـوم واجبا كما في آيتي بـراءة فـإن بـراءة نـزلت بعد فـرض الصـيام باتفـاق النـاس. وكـذلك {لما بعث معـاذ بن جبل إلى اليمن قـال لـه: إنك تـأتي قوما أهل كتـاب ؛ فليكن أول ما تـدعوهم إليـه: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صـلوات في اليـوم والليلة فإن هم أطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صـدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ؛ فـإن هم أطـاعوك لـذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعـوة المظلـوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب} أخرجاه في الصحيحين. ومعـاذ أرسـله إلى اليمن في آخر الأمر بعد فـرض الصـيام ؛ بل بعد فتح مكة بل بعد تبـوك وبعد فرض الحج والجزية فإن النبي صلى الله عليه وسلم مـات ومعاذ بـاليمن وإنما قـدم المدينة بعد موته ؛ ولم يـذكر في هـذا الحـديث الصـيام لأنه تبع وهو بـاطن ولا ذكر الحج ؛ لأن وجوبه خـاص ليس بعـام وهو لا يجب في العمر إلا مـرة. ولهـذا تنـازع العلماء في تكفير من يـترك شـيئا من هـذه " الفـرائض الأربع " بعد الإقـرار بوجوبها ؛ فأما " الشـهادتان " إذا لم يتكلم بهما مع

القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين وهو كـافر باطنا وظـاهرا عند سـلف الأمة وأئمتها وجمـاهير علمائها وذهبت طائفة من المرجئة وهم جهمية المرجئة: كجهم والصـالحي وأتباعهما إلى أنه إذا كـان مصـدقا بقلبه كـان كـافرا في الظـاهر دون البـاطن وقد تقـدم التنبيه على أصل هـذا القـول وهو قـول مبتـدع في الإسـلام لم يقله أحد من الأئمة وقد تقدم أن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظـاهر ؛ بل وغـيره وأن وجـود الإيمـان البـاطن تصـديقا وحبا وانقيادا بدون الإقرار الظاهر ممتنع. وأما " الفـرائض الأربع " فـإذا جحد وجـوب شـيء منها بعد بلـوغ الحجة فهو كـافر وكـذلك من جحد تحـريم شـيء من المحرمـات الظـاهرة المتـواتر تحريمها كـالفواحش والظلم والكـذب والخمر ونحو ذلك وأما من لم تقم عليه الحجة مثل أن يكـون حـديث عهد بالإسـلام أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شـرائع الإسـلام ونحو ذلك أو غلط فظن أن الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات يسـتثنون من تحـريم الخمر كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر. وأمثال ذلك فـإنهم يسـتتابون وتقام الحجة عليهم فـإن أصـروا كفـروا حينئذ ولا يحكم بكفـرهم قبل ذلك ؛ كما لم يحكم الصـــحابة بكفر قدامة بن مظعـــون. وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل. وأما مع الإقـرار بـالوجوب إذا تـرك شـيئا من هـذه الأركـان الأربعة ففي التكفـير أقـوال للعلمـاء هي روايـات عن أحمـد: (أحـدها): أنه يكفر بـترك واحد من الأربعة حتى الحج وإن كان في جواز تأخيره نـزاع بين العلماء فمتى عزم على تركه بالكلية كفر وهـذا قـول طائفة من السـلف وهي إحـدى الروايـات عن أحمد اختارها أبو بكر و (الثـاني): أنه لا يكفر بـترك شـيء من ذلك مع الإقـرار بـالوجوب وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهـاء من أصـحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وهو إحدى الروايات عن أحمد اختارها ابن بطة وغـيره. و (الثـالث) لا يكفر إلا بـترك الصـلاة وهي الرواية الثالثة عن أحمد وقـول كثـير من السـلف وطائفة من أصـحاب مالك والشـافعي وطائفة من أصـحاب أحمـد. و (الرابـع): يكفر بتركها وتـرك الزكـاة فقـط. و (الخـامس): بتركها وتـرك الزكـاة إذا قاتل الإمام عليها دون ترك الصيام والحج. وهذه المسـألة لها طرفـان. (أحـدهما) في إثبـات الكفر الظـاهر. و (الثـاني) في إثبـات الكفر البـاطن. فأما " الطـرف الثـاني " فهو مبـني على مسـألة كـون الإيمان قولا وعملا كما تقدم ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصـيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سـجدة ولا يصـوم من رمضـان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته فهـذا ممتنع ولا يصـدر هـذا

إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ؛ ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون} {خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون}. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما في الحديث الطويل حديث التجلي {أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود} فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا في الصحيح {أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا موضع السجود فإن الله حرم على النار أن تأكله} فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت في الصحيح {أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء} فدل ذلك على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يكون من أمته. وقوله تعالى: {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} {ويل يومئذ للمكذبين} {وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون} {ويل يومئذ للمكذبين} وقوله تعالى: {فما لهم لا يؤمنون} {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} {بل الذين كفروا يكذبون} {والله أعلم بما يوعون}. وكذلك قوله تعالى: {فلا صدق ولا صلى} {ولكن كذب وتولى}. وكذلك قوله تعالى: {ما سلككم في سقر} {قالوا لم نك من المصلين} {ولم نك نطعم المسكين} {وكنا نخوض مع الخائضين} {وكنا نكذب بيوم الدين} {حتى أتانا اليقين} فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و " المتولي " هو العاصي الممتنع من الطاعة. كما قال تعالى: {ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما}. وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن التكذيب بالتولي في قوله: {أرأيت الذي ينهى} {عبدا إذا صلى} {أرأيت إن كان على الهدى} {أو أمر بالتقوى} {أرأيت إن كذب وتولى} {ألم يعلم بأن الله يرى} {كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية} {ناصية كاذبة خاطئة}. و " أيضا " في القرآن علق الأخوة في الدين على نفس إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فإذا انتفى ذلك انتفت الأخوة و " أيضا " فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " {العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر}. وفي المسند {من ترك الصلاة متعمدا فقد

برئت منه الذمة}. و " أيضا " فإن شعار المسلمين الصلاة ولهـذا يعـبر عنهم بها فيقـال: اختلف أهل الصـلاة واختلف أهل القبلة والمصـنفون لمقـالات المسـلمين يقولـون: " مقـالات الإسـلاميين واختلاف المصلين " وفي الصحيح {من صـلى صـلاتنا ؛ واسـتقبل قبلتنا ؛ وأكل ذبيحتنا ؛ فـذلك المسـلم له ما لنا ؛ وعليه ما علينا} وأمثال هذه النصوص كثيرة في الكتاب والسنة. وأما الـذين لم يكفـروا بـترك الصـلاة ونحوها ؛ فليست لهم حجة إلا وهي متناولة للجاحد كتناولها للتارك فما كان جـوابهم عن الجاحد كـان جوابا لهم عن التـارك ؛ مع أن النصـوص علقت الكفر بـالتولي كما تقـدم ؛ وهـذا مثل اسـتدلالهم بالعمومـات الـتي يحتج بها المرجئة كقولـه {من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه... أدخله الله الجنـة} ونحو ذلك من النصـوص. وأجـود ما اعتمدوا عليه قولـه صلى الله عليه وسلم {خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة. فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه. وإن شاء أدخله الجنـة}. قـالوا: فقد جعل غير المحافظ تحت المشيئة. والكـافر لا يكـون تحت المشـيئة ولا دلالة في هـذا ؛ فـإن الوعد بالمحافظة عليها والمحافظة فعلها في أوقاتها كما أمر كما قـال تعـالى: {حـافظوا على الصـلوات والصلاة الوسـطى} وعـدم المحافظة يكـون مع فعلها بعد الـوقت كما أخر النبي صلى الله عليه وسـلم صـلاة العصر يـوم الخنـدق فأنزل الله آية الأمر بالمحافظة عليها وعلى غيرها من الصلوات. وقد قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصـلاة واتبعـوا الشـهوات فسـوف يلقـون غيـا} فقيل لابن مسـعود وغـيره: ما إضـاعتها ؟ فقـال: تأخيرها عن وقتها فقـالوا: ما كنا نظن ذلك إلا تركها فقـال: لو تركوها لكـانوا كفـارا. وكـذلك قولـه: {فويل للمصلين} {الذين هم عن صلاتهم ساهون} ذمهم مع أنهم يصلون ؛ لأنهم سـهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الـوقت وإتمـام أفعالها المفروضة كما ثبت في صحيح مسـلم {عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: تلك صلاة المنـافق تلك صـلاة المنـافق تلك صـلاة المنـافق يـرقب الشـمس حـتى إذا كـانت بين قـرني شـيطان قـام فنقر أربعا لا يـذكر الله فيها إلا قليلا} فجعل هـذه صـلاة المنـافقين لكونه أخرها عن الـوقت ونقرهـا. وقد ثبت في الصحيح {عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر الأمـراء بعـده الذين يفعلون ما ينكر ؛ وقالوا: يا رسول الله أفلا نقـاتلهم قـال: لا ما صلوا} وثبت عنه أنه قال: {سيكون أمـراء يـؤخرون الصـلاة

عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها ثم اجعلـوا صـلاتكم معهم نافلـة} فنهى عن قتالهم إذا صلوا وكان في ذلك دلالة على أنهم إذا لم يصـلوا قوتلـوا وبين أنهم يـؤخرون الصـلاة عن وقتها وذلك تـرك المحافظة عليها لا تركها. وإذا عـرف الفـرق بين الأمـرين فـالنبي صـلى الله عليه وسـلم إنما أدخل تحت المشـيئة من لم يحافظ عليها لا من تـــــرك ونفس المحافظة يقتضي أنهم صـــــلوا ولم يحافظوا عليها ولا يتناول من لم يحافظ فإنه لو تناول ذلك قتلوا كفـارا مرتـدين بلا ريب ولا يتصـور في العـادة أن رجلا يكـون مؤمنا بقلبه مقـرا بـأن الله أوجب عليه الصـلاة ملتزما لشـريعة النـبي صـلى الله عليه وسـلم وما جـاء به يـأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع حتى يقتل ويكون مع ذلك مؤمنا في البـاطن قط لا يكـون إلا كـافرا ولو قـال أنا مقر بوجوبها غـير أني لا أفعلها كـان هـذا القـول مع هـذه الحـال كـذبا منه كما لو أخذ يلقي المصحف في الحش ويقـول أشـهد أن ما فيه كلام الله أو جعل يقتل نبيا من الأنبياء ويقول أشهد أنه رسـول الله ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمـان القلب فـإذا قـال أنا مـؤمن بقلـبي مع هذه الحال كان كاذبا فيما أظهره من القول. فهذا الموضع ينبغي تدبره فمن عرف ارتباط الظاهر بالبـاطن زالت عنه الشـبهة في هذا البـاب وعلم أن من قـال من الفقهـاء أنه إذا أقر بـالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه ؛ فإنه دخلت عليه الشـبهة الـتي دخلت على المرجئة والجهمية والـتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القـدرة التامة لا يكـون بها شـيء من الفعل ولهذا كان الممتنعون من قتل هـذا من الفقهـاء بنـوه على قولـــهم في " مســألة الإيمــان " وأن الأعمــال ليست من الإيمان وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمـان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سـواء جعل الظاهر من لوازم الإيمـان أو جـزءا من الإيمـان كما تقـدم بيانه. وحينئذ فإذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ويـترك بعضـها كـــان معه من الإيمـــان بحسب ما فعله والإيمـــان يزيد وينقص ويجتمع في العبد إيمــان ونفــاق. كما ثبت عنه في الصـحيح أنه قال: {أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة من النفـاق حـتى يـدعها إذا حـدث كـذب وإذا اؤتمن خـان وإذا عاهد غـدر وإذا خاصم فجـر}. وبهـذا تـزول الشبهة في هذا البـاب فـإن كثـيرا من النـاس ؛ بل أكـثرهم في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس ولا هم تاركوها بالجملة بل يصلون أحيانا ويدعون أحيانا فهـؤلاء فيهم إيمان ونفاق وتجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة في المـواريث

ونحوها من الأحكام ؛ فإن هذه الأحكـام إذا جـرت على المنـافق المحض - كـــابن أبي وأمثاله من المنـــافقين - فلأن تجـــري على هؤلاء أولى وأحرى. وبيان " هذا الموضع " مما يزيل الشبهة: فـــإن كثـــيرا من الفقهـــاء يظن أن من قيل هو كـــافر فإنه يجب أن تجـري عليه أحكـام المرتد ردة ظـاهرة فلا يـرث ولا يـورث ولا يناكح حتى أجروا هذه الأحكام على من كفـروه بالتأويل من أهل البدع وليس الأمر كـذلك ؛ فإنه قد ثبت أن النـاس كـانوا " ثلاثة أصـناف: "مـؤمن ؛ وكـافر مظهر للكفر ومنـافق مظهر للإسـلام مبطن للكفـر. وكـان في المنـافقين من يعلمه النـاس بعلامـات ودلالات بل من لا يشـكون في نفاقه ومن نـزل القـرآن ببيـان نفاقه - كـابن أبي وأمثاله - ومع هـذا فلما مـات هـؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون وكان إذا مات لهم ميت آتـوهم ميراثه وكـانت تعصم دماؤهم حتى تقوم السنة الشرعية على أحدهم بما يـوجب عقوبتـه. ولما خـرجت الحرورية على علي بن أبي طـالب رضي الله عنه واعـتزلوا جماعة المسـلمين قـال لهم: إن لكم علينا ألا نمنعكم المسـاجد ولا نمنعكم نصـيبكم من الفيء فلما اسـتحلوا قتل المسلمين وأخذ أموالهم قاتلهم بـأمر النبي صـلى الله عليه وسلم حيث قـال: {يحقر أحـدكم صـلاته مع صـلاتهم وصـيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القـرآن لا يجـاوز حنـاجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة}. فكـانت الحرورية قد ثبت قتـالهم بسـنة النـبي صـلى الله عليه وسلم ؛ واتفاق أصحابه ولم يكن قتالهم قتال فتنة كالقتال الـذي جـرى بين فئـتين عظيمـتين في المسـلمين ؛ بل قد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث الصـحيح الـذي رواه البخاري أنه {قال للحسن ابنه: إن ابني هـذا سـيد وسيصـلح الله به بين فئـتين عظيمـتين من المسـلمين} وقـال في الحـديث الصـحيح: {تمـرق مارقة على حين فرقة من المسـلمين فتقتلهم أدنى الطـائفتين إلى الحـق} فـدل بهـذا على أن ما فعله الحسن من ترك القتال إما واجبا أو مستحبا لم يمدحه النبي صـلى الله عليه وسـلم على تـرك واجب أو مسـتحب ودل الحـديث الآخر على أن الذين قاتلوا الخوارج وهم علي وأصحابه كان أقرب إلى الحق من معاوية وأصـحابه ؛ وأن قتـال الخـوارج أمر به النـبي صلى الله عليه وسـلم ليس قتـالهم كالقتـال في الجمل وصـفين الـذي ليس فيه أمر من النـبي. و (المقصـود) أن علي بن أبي طالب وغيره من أصحابه لم يحكمـوا بكفـرهم ولا قـاتلوهم حـتى بدءوهم بالقتال. والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء

وتخليدهم في النـــار وما من الأئمة إلا من حكي عنه في ذلك " قــولان " كمالك والشـافعي وأحمد وغــيرهم وصــار بعض أتبـاعهم يحكي هــذا الــنزاع في جميع أهل البــدع ؛ وفي تخليــدهم حــتى الــتزم تخليــدهم كل من يعتقد أنه مبتــدع بعينه وفي هـــذا من الخطأ ما لا يحصى ؛ وقابله بعضــــهم فصـــار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء ؛ وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحــاد. والتحقيق في هــذا: أن القــول قد يكــون كفرا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ولا يرى في الآخـــرة ؛ ولكن قد يخفى على بعض النـــاس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل ؛ كما قال السلف من قال: القـرآن مخلـوق فهو كـافر ومن قـال: إن الله لا يـرى في الآخـرة فهو كـافر ولا يكفر الشـخص المعين حـتى تقـوم عليه الحجة كما تقـدم كمن جحد وجوب الصلاة. والزكاة واستحل الخمر ؛ والزنا وتـأول، فـإن ظهـور تلك الأحكـام بين المسـلمين أعظم من ظهـور هـذه فـإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفـره إلا بعد البيـان له واستتابته - كما فعل الصـحابة في الطائفة الـذين اسـتحلوا الخمر - ففي غير ذلك أولى وأحرى وعلى هذا يخرج الحـديث الصـحيح. {في الــذي قــال: إذا أنا مت فـأحرقوني ثم اسـحقوني في اليم فوالله لئن قـــدر الله علي ليعـــذبني عـــذابا ما عذبه أحـــدا من العـــالمين} وقد غفر الله لهـــذا مع ما حصل له من الشك في قدرة الله وإعادته إذا حرقوه وهذه المسـائل مبسـوطة في غـير هذا الموضع. فإن قيل: فالله قد أمر بجهاد الكفار والمنـافقين في آيتين من القرآن فإذا كـان المنـافق تجـري عليه أحكـام الإسـلام في الظاهر فكيف يمكن مجاهدته. قيل ما يسـتقر في القلب من إيمان ونفاق لا بد أن يظهر موجبه في القــول والعمل كما قــال بعض السـلف: ما أسر أحد سـريرة إلا أبـداها الله على صـفحات وجهه وفلتـات لسـانه وقد قـال تعـالى في حق المنـافقين: {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسـيماهم ولتعـرفنهم في لحن القــول}. فـــإذا أظهر المنــافق من تـــرك الواجبـــات وفعل المحرمـــات ما يسـتحق عليه العقوبة عــوقب على الظــاهر ولا يعــاقب على ما يعلم من باطنه بلا حجة ظـاهرة ؛ ولهـذا كـان النـبي صـلى الله عليه وســـلم يعلم من المنـــافقين من عرفه الله بهم وكـــانوا يحلفــون له وهم كــاذبون ؛ وكـان يقبل علانيتهم ويكل سـرائرهم إلى الله. وأسـاس النفـاق الـذي بـنى عليه أن المنـافق لا بد أن تختلف سـريرته وعلانيته وظـاهره وباطنه ولهـذا يصـفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمـنين بالصـدق ؛ قـال تعـالى: {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون}. وقـال: {والله يشـهد إن المنـافقين

لكاذبون}. وأمثال هذا كثير. وقال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} وقال: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب} - إلى قوله - {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}. و " بالجملة " فأصل هذه المسائل أن تعلم أن الكفر " نوعان ": كفر ظاهر وكفر نفاق فإذا تكلم في أحكام الآخرة كان حكم المنافق حكم الكفار وأما في أحكام الدنيا فقد تجري على المنافق أحكام المسلمين. وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات لا لأجل أن الله أوجبها مثل أن يؤدي الأمانة أو يصدق الحديث أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله لم يخرج بذلك من الكفر فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور فلا يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد صلى الله عليه وسلم. ومن قال: بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له ؛ أو جزءا منه فهذا نزاع لفظي كان مخطئا خطأ بينا وهذه بدعة الإرجاء التي أعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف والصلاة هي أعظمها وأعمها وأولها وأجلها.

فصل (ص622)

وأما " الإحسان " فقوله: {أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك}. قد قيل: إن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وقال تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا فإحسان الدين هو - والله أعلم - الإحسان المسئول عنه في حديث جبريل فإنه سأله عن الإسلام والإيمان ؛ ففي (آخر ما وجد في الأصل).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(فصل) (ص623)

قد ذكرت فيما تقدم من القواعد: أن " الإسلام " الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه ؛ وأرسل به رسله ؛ وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين ؛ فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالما له بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام: وهو شهادة أن لا إله إلا الله. وله ضدان: الكبر والشرك ولهذا روي {أن نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك} في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلما له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالما له بل يكون له فيه شرك. ولفظ " الإسلام " يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى: {يحكم بها النبيون الذين أسلموا} وقال موسى: {إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} وقال تعالى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه} وقال الخليل لما قال له ربه: {أسلم قال أسلمت لرب العالمين} {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب} - أيضا وصى بها بنيه - {يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} وقال يوسف: {توفني مسلما} ونظائره كثيرة. وعلم أن إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين بعده كما جعله أمة وإماما وجاءت الرسل من ذريته بذلك فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي أمروا به وهو الإسلام العام ولهذا أمرنا أن نقول: {اهدنا الصراط المستقيم} {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون} وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الإسلام وغلب عليها أحد ضديه فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر. وقد بين الله ذلك في كتابه فقال في اليهود: {وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله}. وهذا هو أصل الإسلام. إلى قوله: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون}. وهذا اللفظ الذي هو لفظ الاستفهام ؛ هو إنكار لذلك عليهم. وذم لهم عليه وإنما يذمون على ما فعلوه فعلم أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا فيقتلون فريقا من الأنبياء ويكذبون فريقا ؛ وهذا حال

المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر في الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك ؟ فقال: لا إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس} وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم. وكذلك ذكر الله " الكبر " في قوله بعد أن قال: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء} إلى أن قال: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا}. وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوي كما قال: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين} {ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} الآية وهذا مثل علماء السوء وقد قال لما رجع موسى إليهم: {ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} فالذين يرهبون ربهم ؛ خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى} {فإن الجنة هي المأوى}. فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكبارا واتباعا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم ؛ فإن العلم حرب للمتعالي كما أن السيل حرب للمكان العالي والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فأتاهم الله علما ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ولهذا لما وصف الله النصارى: {بأن منهم قسيسين ورهبانا}. والرهبان: من الرهبنة {وأنهم لا يستكبرون} كانوا بذلك أقرب مودة إلى الذين آمنوا. كما قال: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}. فلما كان فيهم رهبة وعدم كبر كانوا أقرب إلى الهدى فقال في حق المسلمين منهم: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين}. قال ابن عباس: مع محمد وأمته وهم الأمة الشهداء فإن النصارى لهم قصد وعبادة

وليس لهم علم وشهادة ؛ ولهذا فإن كان اليهود شرا منهم ؛ بأنهم أكثر كبرا وأقل رهبة وأعظم قسوة فإن النصارى شر منهم فإنهم أعظم ضلالا وأكثر شركا وأبعد عن تحريم ما حرم الله ورسوله. وقد وصفهم الله بالشرك الذي ابتدعوه كما وصف اليهود بالكبر الذي هووه فقال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} وقال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} إلى قوله: {أن اعبدوا الله ربي وربكم} الآية وقد ذكر الله قولهم إن الله هو المسيح ابن مريم وإن الله ثالث ثلاثة وقولهم: اتخذ الله ولدا ؛ في مواضع من كتابه وبين عظيم فريتهم وشتمهم لله وقولهم " الإد " الذي: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} ولهذا يدعوهم في غير موضع إلى ألا يعبدوا إلا إلها واحدا كقوله: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق} إلى قوله: {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد} إلى قوله {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} وهذا لأن المشركين بمخلوق من البشر أو غيرهم يصيرون هم مشركون. ويصير الذي أشركوا به من الإنس والجن مستكبرا كما قال: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} فأخبر الله أن عباده لا يستكبرون عن عبادته وإن أشرك بهم المشركون. وكذلك قال تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد} إلى قوله: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} الآية وقال تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة} فأخبر أنه أمرهم بالتوحيد ونهاهم عن أن يشركوا به أو بغيره كما فعلوه. ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة: فضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا. ولما كان أصل دين النصارى الإشراك لتعديد الطرق إلى الله أضلهم عنه ؛ فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده {وما ربك بظلام للعبيد}. كما جاء في الحديث: {يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم}. وكما في الحديث عن عمر بن الخطاب موقوفا ومرفوعا: {ما من أحد إلا

في رأسه حكمة فإن تواضع قيل له: انتعش نعشك الله وإن رفع رأسه قيل لـه: انتكس نكسك اللـه}. وقـال سـبحانه وتعـالى: {إن الـذين يسـتكبرون عن عبـادتي سـيدخلون جهنم داخـرين} وقـال تعـالى: {بلى قد جاءتك آيـاتي فكـذبت بها واسـتكبرت وكنت من الكـافرين} {ويـوم القيامة تـرى الـذين كـذبوا على الله وجـوههم مسـودة أليس في جهنم مثـوى للمتكـبرين} {وينجي الله الـذين اتقوا بمفـازتهم}. ولهـذا اسـتوجبوا الغضب والمقت. والنصـارى لما دخلوا في البـدع: أضـلهم عن سـبيل الله فضـلوا عن سـبيل الله وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل وهم إنما ابتدعوها ليتقربوا بها إليه ويعبـدوه فأبعـدتهم عنه وأضـلتهم عنه وصـاروا يعبـدون غـيره. فتـدبر هـذا والله تعـالى يهـدينا صـراطه المسـتقيم صـراط الـذين أنعم عليهم غـير المغضـوب عليهم والضـالين. وقد وصف بعض اليهود بالشرك في قولـه: {وقـالت اليهـود عزير ابن اللـه} وفي قولـــه: {قل هل أنــبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـــــردة والخنـــــازير وعبد الطـاغوت} ففي اليهـود من عبد الأصـنام وعبد البشر ؛ وذلك أن المسـتكبر عن الحق يبتلى بالانقيـاد للباطل فيكـون المسـتكبر مشـــركا كما ذكر الله عن فرعـــون وقومـــه: أنهم كـــانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين فقال عن مؤمن آل فرعـون: {ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجـاة وتـدعونني إلى النـار} {تـدعونني لأكفر بالله وأشـــرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعـــوكم إلى العزيز الغفـار} {لا جـرم أنما تـدعونني إليه ليس له دعـوة في الـدنيا ولا في الآخـرة}. وقـال: {ولقد جـاءكم يوسف من قبل بالبينـات} الآيـة. وقـال يوسف الصـديق لهم: {يا صـاحبي السـجن أأربـاب متفرقـون خـير أم الله الواحد القهـار} {ما تعبـدون من دونه إلا أسـماء سـميتموها أنتم وآبـاؤكم ما أنـزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمـون} وقد قـال تعـالى: {وقـال الملأ من قـوم فرعـون أتـذر موسى وقومه ليفسـدوا في الأرض ويـذرك وآلهتك قـال سـنقتل أبنـاءهم ونسـتحيي نسـاءهم وإنا فـوقهم قـاهرون}. فـإن قيـل: كيف يكـون قـوم فرعـون مشـركين ؟ وقد أخـــبر الله عن فرعـــون أنه جحد الخـــالق فقـــال: {وما رب العالمين} وقال: {ما علمت لكم من إله غـيري} وقـال: {أنا ربكم الأعلى} وقال عن قومـه: {فلما جـاءتهم آياتنا مبصـرة قـالوا هـذا سـحر مـبين} {وجحـدوا بها واسـتيقنتها أنفسـهم ظلما وعلـوا} والإشـراك لا يكـون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشـرك به. قيل: لم يذكر الله جحود الصـانع إلا عن فرعـون موسى وأما

الـذين كـانوا في زمن يوسف فـالقرآن يـدل على أنهم كـانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهـذا كـان خطـاب يوسف للملك وللعزيز ولهم: يتضـمن الإقـرار بوجـود الصـانع كقولـه: {أأربـاب متفرقون خير أم الله الواحد القهار} {ارجع إلى ربك فاسـأله ما بـال النسـوة} إلى قولـه {إن ربي بكيـدهن عليم} {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} إلى قولـه: {إن النفس لأمـارة بالسـوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفـور رحيم} وقد قـال مـؤمن آل - حم - {ولقد جـاءكم يوسف من قبل بالبينـات فما زلتم في شك مما جـاءكم به حـتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعـده رسـولا} فهـذا يقتضـي: أن أولئك الـذين بعث إليهم يوسف كـانوا يقـرون باللـه. ولهـذا كـان إخـوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفـوا أنه يوسف ويظنونه من آل فرعـون بخطـاب يقتضي الإقـرار بالصـانع كقولـهم: {تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سـارقين} وقـال لهم: {أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصـفون} وقال: {معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده} وقالوا لـه: {يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فـأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين} وذلك أن فرعـون الـذي كـان في زمن يوسف أكـرم أبويه وأهل بيته لما قـدموا إكراما عظيما مع علمه بدينهم واستقراء أحوال الناس يـدل على ذلـك. فـإن جحـود الصـانع لم يكن دينا غالبا على أمة من الأمم قط وإنما كـان دين الكفـار الخـارجين عن الرسـالة هو الإشـراك وإنما كـان يجحد الصـانع بعض النـاس وأولئك كـان علمـاؤهم من الفلاسـفة الصـابئة المشـركين الـذين يعظمـون الهياكل والكـواكب والأصـنام والأخبـار المروية من نقل أخبـارهم وسـيرهم كلها تـدل على ذلك ؛ ولكن فرعـون موسـى: {فاسـتخف قومه فأطـاعوه} وهو الـذي قـال لهم - دون الفراعنة المتقـدمين - ؛ {ما علمت لكم من إله غـيري} ثم قـال لهم بعد ذلـك: {أنا ربكم الأعلى} {فأخـذه الله نكـال الآخـرة والأولى} نكـال الكلمة الأولى. ونكـال الكلمة الأخـيرة وكـان فرعـون في البـاطن عارفا بوجـود الصـانع وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجـوده ولهـذا قـال له موسـى: {لقد علمت ما أنـزل هـؤلاء إلا رب السـماوات والأرض بصـائر} فلما أنكر الصانع وكـانت له آلهة يعبـدها بقي على عبادتها ولم يصـفه الله تعـالى بالشـرك وإنما وصـفه بجحـود الصـانع وعبـادة آلهة أخـرى. والمنكر للصـانع منهم مسـتكبر كثـيرا ما يعبد آلهة ؛ ولا يعبد الله قط ؛ فإنه يقـول: هـذا العـالم واجب الوجـود بنفسـه. وبعض أجزائه مـؤثر في بعض ويقـول إنما انتفع بعبـادة الكـواكب والأصـنام ونحو ذلك ولهـذا كـان بـاطن قـول هـؤلاء الاتحادية

المنتسبة إلى الإسلام هو قول فرعون. وكنت أبين أنه مذهبهم وأبين أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة: عن بعض طواغيتهم أنه قال: نحن على قول فرعون ؛ ولهذا يعظمون فرعون في كتبهم تعظيما كثيرا. فإنهم لم يجعلوا ثم صانعا للعالم خلق العالم ولا أثبتوا ربا مدبرا للمخلوقات وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع ولهذا جوزوا عبادة كل شيء وقالوا من عبده فقد عبد الله ولا يتصور عندهم أن يعبد غير الله فما من شيء يعبد إلا وهو الله وهذه الكائنات عندهم أجزاؤه أو صفاته كأجزاء الإنسان أو صفاته فهؤلاء إذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ؛ لكن لأنها عندهم هي الله أو مجلى من مجاليه أو بعض من أبعاضه أو صفة من صفاته أو تعين من تعيناته وهؤلاء يعبدون ما يعبده فرعون وغيره من المشركين لكن فرعون لا يقول: هي الله ولا تقربنا إلى الله والمشركون يقولون: هي شفعاؤنا وتقربنا إلى الله وهؤلاء يقولون هي الله كما تقدم وأولئك أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله أو جحدوه ؛ وهؤلاء أوسع ضلالا من حيث جوزوا عبادة كل شيء وزعموا أنه هو الله وأن العابد هو المعبود وإن كانوا إنما قصدوا عبادة الله. وإذا كان أولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك. وفرعون موسى هو الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ولم يصفه الله بالشرك. فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله ؛ ولهذا: يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم. كما قال تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم}. فقوم فرعون قد يكونون أعرضوا عن الله بالكلية بعد أن كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون في قوله: {أنا ربكم الأعلى} و {ما علمت لكم من إله غيري}. ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأمرين فقال: {تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم} فذكر الكفر به الذي قد يتناول جحوده وذكر الإشراك به أيضا ؛ فكان كلامه متناولا للمقالتين والحالين جميعا. فقد تبين: أن المستكبر يصير مشركا إما بعبادة آلهة أخرى مع استكباره عن عبادة الله لكن تسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} {ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} فهؤلاء مستكبرون مشركون ؛ وإنما استكبارهم عن إخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر كفرعون أعظم كفرا منهم وإبليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته أعظم كفرا من هؤلاء وإن كان

عالما بوجود الله وعظمته كما أن فرعون كان أيضا عالما بوجود الله. وإذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبه. كما أن الطاعات كلها شعبة من شعب الإيمان ومشتقة منه وقد علم أن الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاو يشبه اليهود ؛ وأن الذي يعبد الله من غير علم وشرع: هو ضال يشبه النصارى ؛ كما كان يقول من يقول من السلف: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ؛ ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى. فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين ؛ من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله ؛ وقد أوتوا نصيبا من الكتاب وحظا من العلم ؛ وقوم فيهم عبادة وتأله بإشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وهذا كثير منتشر في الناس ؛ والشبه تقل تارة وتكثر أخرى ؛ فأما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لا يعبدون الله. وإنما يعبدون غيره للانتفاع به ؛ فهؤلاء يشبهون فرعون.

وقال رحمه الله تعالى:

فصل (ص635)

لفظ " الإسلام " يستعمل على وجهين: " متعديا " كقوله: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن} وقوله: {فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم} الآية {وقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء المنام. أسلمت نفسي إليك}. ويستعمل " لازما " كقوله: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} وقوله: {وله أسلم من في السماوات والأرض} وقوله عن بلقيس: {وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين}. وهو يجمع معنيين: (أحدهما) الانقياد والاستسلام. و (الثاني): إخلاص ذلك وإفراده. كقوله: {ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل}. وعنوانه قول لا إله إلا الله. وله معنيان. (أحدهما): الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء ؛ كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة. و (الثاني) ما اختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج - وهو الشريعة والطريقة والحقيقة - وله مرتبتان: (أحدهما) الظاهر من القول والعمل وهي المباني الخمس. و (الثاني): أن يكون ذلك الظاهر مطابقا للباطن. فبالتفسير الأول [جاءت] الآيتان في كتاب الله والحديثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعم من

الإيمـان فكل مـؤمن مسـلم وليس كل مسـلم مؤمنـا. وبالتفسـير الثـاني يقـال: {إن الـدين عند الله الإسـلام} وقولـــه: {وذلك دين القيمـة} وقولـــه: آمـركم بالإيمـان بالله وفسـره بخصـال الإسـلام وعلى هـذا التفسـير فالإيمـان التـام والـدين والإسـلام سـواء وهو الذي لم يفهم المعتزلة غيره. وقد يراد به معنى ثـالث هو كماله وهو قولـــه: {المسـلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويـده} فيكون أسلم غيره أي جعله سالما منه. ولفظ الإيمان: قيل أصـله التصـــديق - وليس مطابقا له ؛ بل لا بد أن يكـــون تصـــديقا عن غيب وإلا فـــالخبر عن مشـــهود ليس تصـــديقه إيمانا ؛ لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة وهـذا إنما يكـون في المخـبر الـذي قد يقع فيه ريب والمشـــهودات لا ريب فيهـــا. إلا على هـــذا - فأما تصديق القلب فقط كما تقول الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وأما القلب واللسـان كما تقولـه المرجئة أو باللسـان كما تقولـه الكرامية وأما التصـــديق بـــالقلب والقـــول والعمل - فـــإن الجميع يدخل في مسمى التصديق على مذهب أهل الحديث كما فسـره شيخ الإسلام وغيره -. وقيـل: بل هو الإقـرار ؛ لأن التصـديق إنما يطـابق الخـبر فقط وأما الإقـرار فيطـابق الخـبر والأمر كقولـــه: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنـا} ولأن قر وآمن: متقاربان. فالإيمـان دخـول في الأمن والإقـرار دخـول في الإقـرار وعلى هـــذا فالكلمة إقـــرار والعمل بها إقـــرار أيضـــا. ثم هو في الكتاب بمعنيين: أصل وفرع واجب فالأصل الـذي في القلب وراء العمل فلهذا يفرق بينهما بقولـه: {آمنوا وعملوا الصالحات} والذي يجمعهما كما في قولـــه: {إنما المؤمنـــون} {لا يســـتأذنك الـــذين يؤمنون}. وحديث " الحيا " و " وفد عبد القيس " وهو مركب من أصل لا يتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ومن مســـتحب يفـــوت بفواته علو الدرجة فالنـــاس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق كـالحج وكالبـدن والمسـجد وغيرهما من الأعيـان والأعمـال والصـفات فمن سـواء أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل ومنه ما نقص عن الكمال وهو تـرك الواجبـات أو فعل المحرمــــات ومنه ما نقص ركنه وهو تــــرك الاعتقــــاد والقـول: الـذي يـزعم المرجئة والجهمية أنه مسـمى فقط وبهـذا تزول شبهات الفـرق. وأصـله القلب وكماله العمل الظـاهر بخلاف الإسلام فإن أصله الظاهر وكماله القلب.

وقال رحمه الله

فصل (ص638)

معلوم أن أصل " الإيمان " هو الإيمان بالله ورسوله وهو أصل العلم الإلهي كما بينته في أول الجزء. فأما " الإيمان بالله " فهو في الجملة قد أقر به جمهور الخلائق إلا شواذ الفرق من الفلاسفة الدهرية والإسماعيلية ونحوهم أو من نافق فيه من المظهرين للتمسك بالملل وإنما يقع اختلاف أهل الملل في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وعباداته ونحو ذلك. وأما " الإيمان بالرسول " فهو المهم إذ لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه إذ هو الطريق إلى الله سبحانه ؛ ولهذا كان ركنا الإسلام: " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار ؛ لا مجرد التصديق. والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد - تصديق الرسول فيما أخبر والانقياد له فيما أمر كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له فالنفاق يقع كثيرا في حق الرسول وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته والكفر هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض ؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر. ثم هنا " نفاقان ": نفاق لأهل العلم والكلام ونفاق لأهل العمل والعبادة - فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه فأن لا يرى وجوب تصديق الرسول فيما أخبر به ولا وجوب طاعته فيما أمر به وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر - علما وعملا وأنه يجوز تصديقه وطاعته ؛ لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدا ويرى أنه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته ؛ إما بطريق الفلسفة والصبوء أو بطريق التهود والتنصر كما هو: قول الصابئة الفلاسفة في هذه المسألة وفي غيرها فإنهم وإن صدقوه وأطاعوه فإنهم لا يعتقدون وجوب ذلك على جميع أهل الأرض ؛ بحيث يكون التارك لتصديقه وطاعته معذبا ؛ بل يرون ذلك مثل التمسك بمذهب إمام أو طريقة شيخ أو طاعة ملك ؛ وهذا دين التتار ومن دخل معهم. أما النفاق الذي هو دون هذا ؛ فأن يطلب العلم بالله من غير خبره ؛ أو العمل لله من غير أمره ؛ كما يبتلى بالأول كثير من المتكلمة. وبالثاني كثير من المتصوفة فهم يعتقدون أنه يجب تصديقه أو تجب طاعته لكنهم في سلوكهم العلمي والعملي غير سالكين هذا المسلك بل يسلكون مسلكا آخر: إما من جهة القياس والنظر وإما من جهة الذوق والوجد ؛ وإما من جهة التقليد ؛ وما جاء عن الرسول إما أن يعرضوا

عنه وإما أن يردوه إلى ما سلكوه ؛ فانظر نفاق هذين الصـنفين مع اعـترافهم باطنا وظـاهرا بـأن محمـدا صـلى الله عليه وسـلم أكمل الخلق وأفضل الخلق وأنه رســول وأنه أعلم النــاس لكن إذا لم يوجبوا متابعته وسوغوا ترك متابعته كفروا وهذا كثير جـدا لكن بسط الكلام في حكم هؤلاء: له موضع غير هذا.

انتهى

مسائل متفرقة في الإيمان
من غير كتابي الإيمان ((الكبير)) و ((الأوسط))

(ص641) سئل رحمه الله: عن (الإيمان بالله ورسوله هل فوقه مقام من المقامات أو حال من الأحوال أم لا ؟ وهل يدخل فيه جميع المقامات والأحوال المحمودة عند الله ورسوله أم لا ؟ وهل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله في قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل أم لا ؟ وهل يكون لأول حصوله سبب من الأسباب - مثل رؤية أهل الخير أو مجالستهم وصحبتهم أو تعلم عمل من الأعمال أو غير ذلك ؟. فإن كان لأول حصوله سبب فما هو ذلك السبب ؟ وما الأسباب أيضا التي يقوى بها الإيمان - إلى أن يكمل على ترتيبها ؟ هل يبدأ بالزهد حتى يصححه ؟ أم بالعلم حتى يرسخ فيه ؟ أم بالعبادة حتى يجهد نفسه ؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته ؟ أم كيف يتوصل إلى حقيقة الإيمان الذي مدحه الله ورسوله ؟ بينوا لنا الأسباب وأنواعها وشرحها التي يتوصل بها إلى حقيقة الإيمان وما وصف صاحبه - رضي الله عنكم

فأجاب الحمد لله رب العالمين اسم " الإيمان " يستعمل مطلقا ويستعمل مقيدا وإذا استعمل مطلقا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه وهذا مذهب الجماهير من أهل الحديث والتصوف والكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم. ويدخل في ذلك ما قد يسمى مقاما وحالا مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والخشية والإنابة والإخلاص والتوحيد وغير ذلك. ومن هذا ما خرج في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال: {الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان}. فذكر أعلى شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير} وفي الترمذي وغيره أنه قال: {من مات وهو يعلم أن لا

إله إلا الله دخل الجنـة} وفي الصـحيح عنه {أنه قـال: لعمه عند الموت يا عم قـل: لا إله إلا الله كلمة أحـاج لك بها عند اللـه}. وقد تظـاهرت الـدلائل على أن أحسن الحسـنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قـال تعـالى: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصـــحيح عنه حـــديث الموجبـــتين: موجبة الســـعادة وموجبة الشـقاوة ؛ فمن مـات يشـهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمـان. وفي الصـحيحين {عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال لوفد عبد القيس: آمـركم بالإيمـان بالله أتـدرون ما الإيمـان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكـاة وتـؤدوا خمس المغنم} فجعل هـذه الأعمـال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في {حديث جبرائيل الصـحيح - لما أتاه في صورة أعرابي - وسأله عن الإيمان ؛ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد المـوت وتـؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمـــدا رســـول الله وتقيم الصـــلاة وتـــؤتي الزكـــاة وتصــوم رمضــان وتحج الــبيت} وفي حــديث في المســند قــال: {الإسـلام علانية والإيمـان في القلب}. فأصل الإيمـان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كـان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضـاه على الجـوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ؛ ولهذا كانت الأعمال الظـاهرة من مـوجب إيمـان القلب ومقتضـاه وهي تصـــديق لما في القلب ودليل عليه وشـــاهد له وهي شـــعبة من مجمـــــوع الإيمـــــان المطلق وبعض له ؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريـرة - رضي الله عنه -: إن القلب ملك والأعضاء جنوده فـإن طـاب الملك طـابت جنـوده وإذا خبث الملك خبثت جنـــوده وفي الصـــحيحين عنه صـــلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها ســـــائر الجسد وإذا فســـــدت فسد لها ســـــائر الجسد ألا وهي القلب}. ولهـذا ظن طوائف من النـاس أن الإيمـان إنما هو في القلب خاصة وما على الجوارح ليس داخلا في مسماه ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه حـــــــتى آل الأمر بغلاتهم - كجهم وأتباعه - إلى أن قـالوا: يمكن أن يصـدق بقلبه ولا يظهر بلسـانه إلا كلمة الكفر مع قدرته على إظهارها فيكـون الـذي في القلب إيمانا نافعا له في الآخـرة وقـالوا: حيث حكم الشـارع بكفر أحد

بعمل أو قــول: فلكونه دليلا على انتفــاء ما في القلب وقولـــهم متناقض ؛ فإنه إذا كان ذلك دليلا مستلزما لانتفـاء الإيمـان الـذي في القلب امتنع أن يكـــون الإيمـــان ثابتا في القلب مع الـــدليل المســـتلزم لنفيه وإن لم يكن دليلا لم يجز الاســـتدلال به على الكفر البــاطن. والله ســبحانه في غــير موضع يــبين أن تحقيق الإيمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظـاهرة والباطنـة. كقولــه: {إنما المؤمنـــون الـــذين إذا ذكر الله وجلت قلـــوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلــون} {الـذين يقيمــون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {أولئك هم المؤمنون حقـا} وقـال: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسـهم في سـبيل الله أولئك هم الصـادقون} وقـال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنـوا بالله ورسـوله وإذا كـانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه} وقال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنـــون حـــتى يحكمــوك فيما شـجر بينهم ثم لا يجــدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}. فإذا قال القائل: هذا يدل على أن الإيمان ينتفي عند انتفاء هـذه الأمـور لا يـدل على أنها من الإيمان قيل هذا اعـتراف بأنه ينتفي الإيمـان البـاطن مع عدم مثل هذه الأمور الظاهرة فلا يجوز أن يدعي أنه يكـون في القلب إيمان ينـافي الكفر بـدون أمـور ظـاهرة: لا قـول ولا عمل وهو المطلـــوب - وذلك تصـــديق - وذلك لأن القلب إذا تحقق ما فيه أثر في الظـاهر ضـرورة لا يمكن انفكـاك أحـدهما عن الآخر فالإرادة الجازمة للفعل مع القـدرة التامة تـوجب وقـوع المقـدور فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه {لا تجد قوما يؤمنـون بالله واليـوم الآخر يـوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخـــوانهم أو عشــيرتهم} {ولو كــانوا يؤمنـــون بالله والنــبي وما أنــزل إليه ما اتخذوهم أولياء} فهـذا التلازم أمر ضـروري. ومن جهة ظن انتفـاء التلازم غلط غـالطون ؛ كما غلط آخـرون في جـواز وجـود إرادة جازمة مع القـدرة التامة بـدون الفعل حـتى تنـازعوا: هل يعـاقب على الإرادة بلا عمل ؟ وقد بسـطنا ذلك في غـير هـذا الموضع وبينــا: أن الهمة الــتي لم يقــترن بها فعل ما يقــدر عليه الهــام ليست إرادة جازمة وأن الإرادة الجازمة لا بد أن يوجد معها ما يقـــدر عليه العبد والعفو وقع عمن هم بســـيئة ولما يفعلها ؛ لا عن من أراد وفعل المقـــدور عليه وعجز عن حصـــول مـــراده كالــذي أراد قتل صـاحبه فقاتله حـتى قتل أحـدهما ؛ فـإن هـذا يعـــاقب ؛ لأنه أراد وفعل المقـــدور من المـــراد ومن عـــرف الملازمات التي بين الأمـور الباطنة والظـاهرة زالت عنه شـبهات

كثيرة في مثل هذه المواضع التي كثر اختلاف الناس فيها.

بقي أن يقال: فهل اسم الإيمان للأصل فقط أو له ولفروعه ؟. والتحقيق: أن الاسم المطلق يتناولهما وقد يخص الاسم وحده بالاسم مع الاقتران وقد لا يتناول إلا الأصل إذا لم يخص إلا هو ؛ كاسم الشجرة فإنه يتناول الأصل والفرع إذا وجدت ولو قطعت الفروع لكان اسم الشجرة يتناول الأصل وحده وكذلك اسم الحج هو اسم لكل ما يشرع فيه من ركن وواجب ومستحب وهو حج أيضا تام بدون المستحبات وهو حج ناقص بدون الواجبات التي يجبرها دم. والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الإيمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب ؛ بحيث ترك ما يجب من كماله وتمامه ؛ لا بانتفاء ما يستحب في ذلك ولفظ الكمال والتمام: قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب ؛ كما يقول بعض الفقهاء: الغسل ينقسم: إلى كامل ومجزئ فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم {لا إيمان لمن لا أمانة له} و {لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن}. ونحو ذلك كان لانتفاء بعض ما يجب فيه ؛ لا لانتفاء الكمال المستحب. والإيمان يتبعض ويتفاضل الناس فيه: كالحج والصلاة ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: {يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ومثقال شعيرة من إيمان}. وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا: كما في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وقوله: {الذين آمنوا وكانوا يتقون} وقول النبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت} ونحو ذلك فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: {وملائكته ورسله وجبريل وميكال} وقوله: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم}. وقد يقال: إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا ؟ لكونها عطفت عليه. ومن هذا الباب قد يعطف على الإيمان بعض شعبه العالية أو بعض أنواعه الرفيعة: كاليقين والعلم ونحو ذلك فيشعر العطف بالمغايرة ؛ فيقال هذا: أرفع الإيمان - أي اليقين والعلم أرفع من الإيمان الذي ليس معه هذا اليقين والعلم كما قال الله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}.

ومعلـوم أن النـاس يتفاضـلون في نفس الإيمـان والتصـديق في قوته وضـــــعفه وفي عمومه وخصوصه وفي بقائه ودوامه وفي موجبه ونقيضه وغـــير ذلك من أمـــوره فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النـــوع الآخر ويبقى اسم الإيمـــان في مثل ذلك متنـاولا للقسم الآخر وكـذلك يفعل في نظـائر ذلك ؛ كما يقـال: الإنسان خـير من الحيـوان والإنسـان خـير من الـدواب وإن كـان الإنسان يدخل في الدواب في قولـــه: {إن شر الـدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}. فإذا عـرف هـذا ؛ فحيث وجد في كلام مقبـول تفضـيل شـيء على الإيمـان فإنما هو تفضـيل نـوع خــاص على عمومه أو تفضــيل بعض شــعبه العالية على غــيره واسم الإيمـان قد يتنـاول النـوعين جميعا وقد يخص أحـدهما كما تقدم وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة أسمائه.

فصل (ص649)

وأما قول القائل: هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله في قلب العبد ويعـــــــرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل ؟ فيقـال لـه: قد قـال الله تعـالى: {الله نـور السـماوات والأرض مثل نـــوره كمشــكاة فيها مصــباح} قـــال أبي بن كعب وغـيره: مثل نـوره في قلب المـؤمن إلى قولـــه: {ومن لم يجعل الله له نـــورا فما له من نـــور} وقـــال تعـالى: {أومن كـــان ميتا فأحييـنـــاه وجعلنا له نـــورا يمشي به في النـــاس كمن مثله في الظلمـات} فالإيمـان الـذي يهبه الله لعبـده سـماه نـورا وسـمي الوحي النازل من السماء الذي به يحصل الإيمان {نورا نهدي به من نشـاء من عبادنـا} وقـال تعـالى: {فالـذين آمنـوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنـزل معـه} وأمثـال ذلك ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل بل يفرق بين أعظم الحق لكن لا يمكن أن يقال: بأن كل من له إيمان يفـرق بمجـرد ما أعطيه من الإيمان بين كل حق وكل باطل.

فصل (ص650)

وأما قولـه: هل يكون لأول حصوله سبب ؟ فلا ريب أنه يحصل بســـبب مثل اســـتماع القـــرآن ومثل رؤية أهل الإيمـــان والنظر في أحـوالهم ومثل معرفة أحـوال النـبي صـلى الله عليه وســـلم ومعجزاته والنظر في ذلك ومثل النظر في آيـــات الله تعـالى ومثل التفكر في أحـوال الإنسـان نفسه ومثل الضـروريات التي يحدثها الله للعبد التي تضطره إلى الذل لله والاستسلام له

واللجوء إليه وقد يكون هذا سببا لشيء من الإيمـان وهـذا سـببا لشيء آخر ؛ بل كل ما يكـون في العـالم من الأمـور فلا بد له من سبب وسبب الإيمان وشعبه يكون تـارة من العبد وتـارة من غـيره مثل من يقيض له من يـدعوه إلى الإيمـان ومن يـأمره بالخير وينهاه عن الشر ويبين له علامات الـدين وحججه وبراهينه وما يعتبره وينزل به ويتعظ به وغير ذلك من الأسباب.

فصل (ص651)

وأما قولـه: فالأسـباب الـتي يقـوى بها الإيمـان إلى أن يكمل على ترتيبها ؟ هل يبـدأ بالزهد ؟ أو بـالعلم ؟ أو بالعبـادة ؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته ؟ فيقال: له لا بد من الإيمـان الواجب والعبادة الواجبة والزهد الواجب ثم الناس يتفاضـلون في الإيمان ؛ كتفاضلهم في شعبه وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضـل. والنـاس يتفاضـلون في هـذا البـاب: فمنهم من يكـون العلم أيسر عليه من الزهد ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه ومنهم من تكـون العبـادة أيسر عليه منهما فالمشروع لكل إنسـان أن يفعل ما يقـدر عليه من الخـير كما قال تعـالى: {فـاتقوا الله ما اسـتطعتم} وإذا ازدحمت شـعب الإيمان قدم ما كـان أرضى لله وهو عليه أقـدر فقد يكـون على المفضـول أقـدر منه على الفاضل ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل فالأفضل لهـــــذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل ولا يطلب ما هو أفضل مطلقا إذا كـان متعـذرا في حقه أو متعســــرا يفوته ما هو أفضل له وأنفع ؛ كمن يقـــــرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصـلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل أو ينتفع بالـذكر أعظم مما ينتفع بـالقراءة. فـأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه من تكلف عمل لا يأتي به على وجهه بل على وجه نـــاقص ويفوته به ما هو أنفع له ؛ ومعلوم أن الصلاة آكد من قراءة القـرآن وقـراءة القـرآن أفضل من الـذكر والـدعاء ومعلـوم أيضا أن الـذكر في فعله الخـاص: كالركوع والسجود أفضل من قراءة القــرآن في ذلك المحل وأن الـذكر والقـراءة والـدعاء عند طلـوع الشـمس وغروبها خـير من الصـــلاة. والزهد هو ضد الرغبة وهو كـــالبغض المخـــالف للمحبة والكراهة المخالفة للإرادة وكل من الإرادة والكراهة له أقســـــام في نفسه وفي متعلقه فالزهد (فيه انقســـام: إلى المزهـــود فيه وإلى نفس الزهـد. أما الأول: فـإن الزهد000(بيـاض في الأصـل) وأما نفس الزهد الـــــــذي هو ضد الرغبة وهو الكراهة والبغض

فحقيقة المشروع منه أن يكون كراهة العبد وبغضه وحبه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه ويسخط ما يسخطه الله بحيث لا يكون تابعا هواه بل لأمر مولاه فإن كثيرا من الزهاد في الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ولهذا كان في المشركين زهاد وفي أهل الكتاب زهاد وفي أهل البدع زهاد. ومن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا ومنهم من يزهد لمسالمة أهلها والسلامة من أذاهم ومنهم من يزهد في المال لطلب الراحة إلى أمثال هذه الأنواع التي لا يأمر الله بها ولا رسوله وإنما يأمر الله ورسوله أن يزهد فيما لا يحبه الله ورسوله ويرغب فيما يحبه الله ورسوله فيكون زهده هو الإعراض عما لا يأمر الله به ورسوله أمر إيجاب ولا أمر استحباب سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا مستوي الطرفين في حق العبد ويكون مع ذلك مقبلا على ما أمر الله به ورسوله وإلا فترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب وإنما المطلوب بالمقصود الأول فعل ما يحبه الله ورسوله وترك المكروه متعين كذلك به تزكو النفس ؛ فإن الحسنات إذا انتفت عنها السيئات زكت فبالزكاة تطيب النفس من الخبائث وتعظم في الطاعات كما أن الزرع إذا أزيل عنه الدغل زكا وظهر وعظم.

فصل (ص653)

وأما طريق الوصول إلى ذلك: فبالاجتهاد في فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة به على ذلك ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا. ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان} وفي السنن {أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى على رجل فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل}. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم العبد بأن

يحرص على ما ينفعه ويستعين بالله على ذلك والحرص على ما ينفعه هو الاجتهاد في الخير وهو العبادة ؛ فإن كل ما ينفع العبد فهو مــأمور بطلبه وإنما ينهى عن طلب ما يضــره - وإن اعتقد أنه ينفعه - كما يطلب المحرمـات وهي تضـره ويطلب المفضـول الــذي لا ينفعه والله تعــالى أبــاح للمؤمــنين الطيبــات وهي ما ينفعهم وحــرم عليهم الخبــائث وهي ما يضــرهم والله ســبحانه وتعالى أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسـلم تسـليما كثيرا

قال شيخ الإسلام –طيب الله ثراه-:

فصل (ص655)

وأما الإيمان: هل هو مخلوق أو غير مخلـوق ؟. فـالجواب أن هــذه المســألة نشأ الــنزاع فيها لما ظهــرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين وقد جرت فيها أمـور يطـول وصـفها هنا لكن لما ظهر القــول بــأن القــرآن كلام الله غــير مخلــوق وأطفأ الله نـار الجهمية المعطلة صـارت طائفة يقولـون إن كلام الله الذي أنزله مخلوق ويعبرون عن ذلك باللفظ فصاروا يقولون ألفاظنا بــــــــالقرآن مخلوقة أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يــدخلون في كلامهم نفس كلام الله الـذي نقـرأ بأصـواتنا وحركاتنا وعارضـهم طائفة أخـرى فقــالوا: ألفاظنا بــالقرآن غــير مخلوقة فــرد الإمــام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قـال: غـير مخلـوق فهو مبتـدع. وتكلم النـاس حينئذ في الإيمـان فقالت طائفة: الإيمان مخلـوق وأدرجـوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثـل: قـول لا إله إلا الله فصـار مقتضى قولــهم أن نفس هذه الكلمة مخلوقة ولم يتكلم الله بها فبـدع الإمـام أحمد هـؤلاء وقـال: قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم {الإيمـان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله} أفيكـون قـول لا إله إلا الله مخلوقــا. ومــراده أن من قــال: هي مخلوقة مطلقا كــان مقتضى قولـه إن الله لم يتكلم بهـذه الكلمة كما أن من قــال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقــرآن مخلوقة كــان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بـالقرآن الـذي أنزله وأن القـرآن المـنزل ليس هو كلام الله وأن يكون جبريل نـزل بمخلـوق ليس هو كلام الله والمســلمون يقــرءون قرآنا مخلوقا ليس هو كلام الله وقد علم بالاضطرار من دين الإسـلام أن القـرآن الـذي يقـرؤه المسـلمون

كلام الله تعالى وإن كان مسموعا من المبلغ عنه فإن الكلام قد سمع من المتكلم به كما سمعه موسى بلا واسطة وهـذا سـماع مطلق - كما يـرى الشـيء رؤية مطلقة وقد يسـمعه من المبلغ عنه فيكون قد سمعه سمعا مقيدا - كما يرى الشـيء في المـاء والمرآة رؤية مقيدة لا مطلقة أو كما قال تعـالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فـأجره حـتى يسـمع كلام اللـه} كـان معلوما عند جميع من خـوطب بـالقرآن أنه يسـمع سـماعا مقيـدا من المبلغ ليس المراد به أنه يسمع من اللـه. ومن هـؤلاء من قـال: إنه يسـمع صـوت القـارئ من الله ثم من هـؤلاء من يقـول: إن صوت الرب حل في العبد ومنهم من يقول ظهر فيه - ولم يحل فيه ومنهم من يقـــول لا أقـــول ظهر ولا حل ومنهم من قـــال الصوت المسموع غير مخلـوق أو قـديم ومنهم من يقـول يسـمع منه صوتان: مخلوق وغير مخلوق. ومن القـائلين بأنه مسـموع من الله من يقول: بأنه يسمع المعنى القديم القـائم بـذات الـرب مع سماع الصوت المحدث ؛ قال هؤلاء يسمع القديم والمحـدث كما قال أولئك يسمع صوتين قديما ومحدثا ؛ وطائفة أخرى قالت: لم يسـمع النـاس كلام الله ؛ لا من الله ولا من غـيره ؛ قـالوا: لأن الكلام لا يسمع إلا من المتكلم ؛ ثم من هـؤلاء من قـال: تسـمع حكايته ومنهم من قـال: تسـمع عبارته لا حكايته ؛ ومن القـائلين بأنه مخلـوق من قـال: يسـمع شـيئان: الكلام المخلـوق ؛ والـذي خلقه ؛ والصوت الذي للعبـد. وهـذه الأقـوال كلها مبتدعة مخترعة لم يقل السلف شيئا منها ؛ وكلها باطلة شرعا وعقلا ولكن ألجأ أصحابها إليها اشتراك في الألفاظ ؛ واشـتباه في المعـاني ؛ فإنه إذا قيل سمعت كلام زيد أو قيل هذا كلام زيد فـإن هـذا يقـال: على كلامه الذي تكلم به بلفظه ومعناه سواء كان مسـموعا منه أو من المبلغ عنه مع العلم بـالفرق بين الحـالين وأنه إذا سـمع منه سمع بصوته وإذا سمع من غيره سمع بصوت ذلك المبلغ لا بصـــوت المتكلم وإن كـــان اللفظ لفظ المتكلم وقد يقـــال مع القرينة هذا كلام فلان وإن تـرجم عنه بلفظ آخر كما يحكي الله كلام من يحكي قولـه من الأمم باللسـان العـربي وإن كـانوا إنما قالوه بلفظ عبري أو سرياني أو قبطي أو غير ذلك وهذه الأمور مبســوطة في مواضع أخـــر. و (المقصـــود) هنا أنه نشأ بين أهل السنة والحديث الـنزاع في " مسـألتي: القـرآن والإيمـان " بسـبب ألفـاظ مجملة ومعـاني متشـابهة وطائفة من أهل العلم والسـنة: كالبخـــاري صـــاحب الصـــحيح ومحمد بن نصر المـــروزي وغيرهما قالوا: الإيمان مخلوق ؛ وليس مرادهم شيئا من صفات الله. وإنما مـرادهم بـذلك أفعـال العبـاد وقد اتفق أئمة المسـلمين على أن

أفعـال العبـاد مخلوقة وقـال يحـيى بن سـعيد القطـان: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعـال العبـاد مخلوقـة. وصـار بعض النـاس يظن أن البخاري وهـؤلاء خـالفوا أحمد بن حنبل وغـيره من أئمة السنة وجرت للبخاري محنة بسبب ذلك حتى زعم بعض الكذابين أن البخـاري لما مـات أمر أحمد بن حنبل ألا يصـلى عليه وهـذا كـذب ظـاهر فـإن أبا عبد الله البخـاري - رحمه الله - مـات بعد أحمد بن حنبل بنحو خمس عشـرة سـنة فـإن أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - تــوفي ســنة إحــدى وأربعين ومــائتين وتــوفي البخاري سنة ست وخمسين ومـائتين وكـان أحمد بن حنبل يحب البخاري ويجله ويعظمه وأما تعظيم البخـاري وأمثاله للإمـام أحمد فهو أمر مشهور ولما صنف البخاري كتابه في خلق أفعال العباد وذكر في آخر الكتـاب أبوابا في هـذا المعـنى ؛ ذكر أن كلا من الطائفتين القائلين: بأن لفظنا بالقرآن مخلـوق والقـائلين بأنه غـير مخلـوق ينسـبون إلى الإمـام أحمد بن حنبل ويـدعون أنهم على قولـه وكلا الطـــائفتين لم تفهم دقة كلام أحمد - رضي الله عنه -. وطائفة أخــرى: كـأبي الحسن الأشـعري والقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وغــــيرهم ممن يقولــــون إنهم على اعتقــاد أحمد بن حنبل وأئمة أهل السـنة والحـديث قـالوا: أحمد وغيره كرهوا أن يقـال: لفظي بـالقرآن ؛ فـإن اللفظ هو الطـرح والنبذ وطائفة أخـرى كـأبي محمد بن حـزم وغـيره ممن يقـول أيضـا: إنه متبع لأحمد بن حنبل وغـيره من أئمة السـنة إلى غـير هؤلاء ممن ينتسب إلى السنة ومذهب الحديث يقولون إنهم على اعتقــاد أحمد بن حنبل ونحــوه من أهل السـنة وهم لم يعرفــوا حقيقة ما كان يقولـه أئمة السـنة ؛ كأحمد بن حنبل وأمثاله وقد بسطنا أقوال السلف والأئمة: أحمد بن حنبل وغيره في غير هـذا الموضع. وأما البخاري وأمثاله فإن هؤلاء من أعرف النـاس بقـول أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ؛ وقد رأيت طائفة تنتسب إلى السـنة والحـديث: كـأبي نصر السـجزي وأمثاله ممن يـردون على أبي عبد الله البخــاري يقولــون. إن أحمد بن حنبل كــان يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق ؛ وذكروا روايـات كاذبة لا ريب فيها ؛ والمتـواتر عن أحمد بن حنبل من رواية بنيـه: صـالح وعبد الله وحنبل والمـروذي ؛ وفـوزان ومن لا يحصي عـددهم إلا الله تبين أن أحمد كـان ينكر على هـؤلاء وهـؤلاء وقد صـنف أبو بكر المـروذي في ذلك مصـنفا ذكر فيه قـول أحمد بن حنبل وغـيره من أئمة العلم ؛ وقد ذكر ذلك الخلال - في كتــاب " الســنة " وذكر بعضه أبو عبد الله بن بطة في كتــاب " الإبانة " وقد ذكر كثـيرا من ذلك أبو عبد الله بن منـده فيما صـنفه في " مسـألة

اللفظ ". وقـــال أبو محمد بن قتيبة الـــدينوري: لم يختلف أهل الحديث في شيء من اعتقادهم إلا في مسـألة اللفظ ؛ ثم ذكر ابن قتيبة: أن اللفظ يراد به مصـدر لفظ يلفظ لفظا ؛ ويـراد به نفس الكلام الذي هو فعل العبد وصـوته وهو مخلـوق وأما نفس كلام الله الـذي يتكلم به العبـاد فليس مخلوقا وكـذلك " مسـألة الإيمان " لم يقل قط أحمد بن حنبل أن الإيمـان غـير مخلـوق ؛ ولا قـال أحمد ولا غـيره من السـلف أن القـرآن قـديم ؛ وإنما قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ولا قال أحمد بن حنبل ولا أحد من الســلف أن شــيئا من صــفات العبد وأفعاله غــير مخلوقة ولا صــوته بــالقرآن ولا لفظه بــالقرآن ؛ ولا إيمانه ولا صلاته ولا شيء من ذلك. لكن المتأخرون انقسموا في هذا الباب انقساما كثيرا ؛ فالذين كانوا يقولون لفظنا بالقرآن غـير مخلـوق ؛ منهم من أطلق القـول بـأن الإيمـان غـير مخلـوق ومنهم من يقــول قــديم في هــذا وهــذا ؛ ومنهم من يفــرق بين الأقــوال الإيمانية والأفعال فيقولون: الأقوال غير مخلوقة وقديمة ؛ وأفعـال الإيمان مخلوقة ؛ ومنهم من يقول في أفعال الإيمان إن المحرم منها مخلوق وأما الطاعات كالصلاة وغيرها فمنهم من يقـول: هي غير مخلوقة ؛ ومنهم من يمسك فلا يقـول: هي مخلوقة ولا غـير مخلوقة ومنهم من يمسك عن الأفعــــــال المحرمة ومنهم من يقول: بل أفعال العباد كلها غير مخلوقة أو قديمة ؛ ويقـول ليس مرادي بالأفعال الحركـات ؛ بل مـرادي الثـواب الـذي يجيء يـوم القيامة ويحتج هذا بأن القدر غير مخلـوق والشـرع غـير مخلـوق. ويجعل أفعـال العبـاد هي: القـدر والشـرع ولا يفـرق بين القــدر والمقـدور والشـرع والمشـروع ؛ فـإن الشـرع الـذي هو أمر الله ونهيه غــير مخلــوق وأما الأفعــال المــأمور بها والمنهي عنها فلا ريب أنها مخلوقة ؛ وكذلك القدر الذي هو علمه ومشيئته وكلامه غــير مخلــوق وأما المقــدرات: الآجــال والأرزاق والأعمــال فكلها مخلوقة وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وقائليها في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة ومن اتبعه كلهم بريئــون من الأقــوال المبتدعة المخالفة للشــرع والعقل ولم يقل أحد منهم أن القــرآن قــديم لا معــنى قــائم بالـذات ولا إنه تكلم به في القـديم بحـرف وصـوت ولا تكلم به في القديم بحرف قديم ؛ لم يقل أحد منهم لا هذا ولا هذا وإن الذي اتفقوا عليه أن كلام الله منزل غير مخلوق والله تعالى لم يــزل متكلما إذا شــاء وكلامه لا نهاية لــه. كما قــال الله تعـالى: {قل لو كـان البحر مـدادا لكلمـات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي} وهو قديم بمعـنى: أنه لم يـزل الله متكلما بمشـيئته

؛ لا بمعنى أن الصوت المعين قديم كما بسطت الكلام في غـير هذا الموضع على اختلاف أهل الأرض في كلام الله تعـالى: منهم من يجعله فيضا من العقل الفعـال على النفـوس. كقـول طائفة من الصـابئة والفلاسـفة وهو أفسد الأقـوال ومنهم من يقـول هو مخلوق خلقه بائنا عنه: كقـول الجهمية والنجارية والمعتزلة ومنهم من يقـــول هو معـــنى قـــديم قـــائم بالـــذات: كقـــول ابن كلاب والأشعري ومنهم من يقول هو حروف وأصوات: كقول ابن سـالم وطائفة ومنهم من يقول تكلم بعد أن لم يكن متكلما: كقول ابن كرام وطائفة. والصواب من هـذه الأقـوال قـول السـلف والأئمـة: كما قد بسـطت ألفـاظهم في غـير هـذا الموضـع. ولما ظهـرت المحنة كان أهل السنة يقولون: كلام الله غـير مخلـوق. وكـانت " الجهمية " من المعتزلة وغـيرهم. يقولـون: إنه مخلـوق وكـان أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان له فضيلة ومعرفة رد بها على الجهمية والمعتزلة نفـــاة الصـــفات وبين أن الله نفسه فـــوق العـــرش ؛ وبسط الكلام في ذلك ولم يتخلص من شـــبهة الجهمية كل التخلص ؛ بل ظن أن الـــــرب لا يتصف بـــــالأمور الاختيارية التي تتعلق بقدرته ومشـيئته فلا يتكلم بمشـيئته وقدرته ولا يحب العبد ويرضى عنه بعد إيمانه وطاعته ولا يغضب عليه ويسخط بعد كفره ومعصيته ؛ بل محبا راضيا أو غضبان سـاخطا على من علم أنه يمـــوت مؤمنا أو كـــافرا. ولا يتكلم بكلام بعد كلام وقد قـال تعـالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تـراب ثم قـال له كن فيكـون} وقـال تعـالى: {قل إن كنتم تحبـون الله فـاتبعوني يحببكم اللـه} وقـال تعـالى: {فلما آسـفونا انتقمنا منهم} وقـال تعـالى: {ذلك بـأنهم اتبعـوا ما أسـخط الله وكرهـوا رضـوانه فأحبط أعمـالهم} وقـال تعـالى: {هو الـذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم اسـتوى على العـرش} وهـذا أصل كبـير قد بسط الكلام عليه في غـير هـذا الموضـع. وإنما المقصود هنا التنبيه على مآخذ اختلاف المسلمين في مثل " هذه المسـائل " وإذا عـرف ذلك فـالواجب أن نثبت ما أثبته الكتـاب والسنة وننفي ما نفى الكتـاب والسـنة. واللفظ المجمل الـذي لم يرد في الكتاب والسنة لا يطلق في النفي والإثبـات حـتى يتـبين المراد به كما إذا قال القائل: الرب متحيز أو غـير متحـيز أو هو في جهة أو ليس في جهة قيل هذه الألفـاظ مجملة لم يـرد بها الكتـــاب والســـنة لا نفيا ولا إثباتا ولم ينطق أحد من الصـــحابة والتابعين لهم بإحسان بإثباتها ولا نفيهـا. فـإن كـان مـرادك بقولك إنه يحيط به شـــيء من المخلوقـــات ؛ وليس هو بقدرته يحمل العـرش وحملته وليس هو العلي الأعلى الكبـير العظيم الـذي لا

تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو سبحانه أكبر من كل شيء فليس هو متحيزا بهذا الاعتبار وإن كان مرادك أنه بائن عن مخلوقاته عال عليها فوق سمواته على عرشه ؛ فهو سبحانه بائن من خلقه كما ذكر ذلك أئمة السنة مثل: عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أعلام الإسلام وكما دل على ذلك صحيح المنقول وصريح المعقول كما هو مبسوط في مواضع أخر. وكذلك لفظ " الجهة " إن أراد بالجهة أمرا موجودا يحيط بالخالق أو يفتقر إليه فكل موجود سوى الله فهو مخلوق. والله خالق كل شيء وكل ما سواه فهو فقير إليه وهو غني عما سواه وإن كان مراده أن الله سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه فهذا صحيح. سواء عبر عنه بلفظ الجهة أو بغير لفظ الجهة. وكذلك لفظ " الجبر " إذا قال: هل العبد مجبور أو غير مجبور ؟ قيل: إن أراد بالجبر أنه ليس له مشيئة ؛ أو ليس له قدرة ؛ أو ليس له فعل ؛ فهذا باطل فإن العبد فاعل لأفعاله الاختيارية وهو يفعلها بقدرته ومشيئته وإن أراد بالجبر أنه خالق مشيئته وقدرته وفعله فإن الله تعالى خالق ذلك كله. وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق ؟ قيل له: ما تريد " بالإيمان " ؟ أتريد به شيئا من صفات الله وكلامه كقوله (لا إله إلا الله و " إيمانه " الذي دل عليه اسمه المؤمن فهو غير مخلوق أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة ولا يقول هذا من يتصور ما يقول فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب ظهر الخطأ من الصواب. والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه وما نفاه الكتاب والسنة نفوه وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا ينفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل ؛ فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله فقد أصاب ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق وباطل فيتبع الحق ويترك الباطل وكلما خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا ولكن كثير من الناس يظن تناقض ذلك وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي

شقاق بعيد} ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-

فصل (ص666)

الاستثناء في الإيمان سنة عند أصحابنا وأكثر أهل السنة وقالت المرجئة والمعتزلة: لا يجوز الاستثناء فيه بل هو شك ؛ و " الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله أو مؤمن أرجو أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله أو إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي فنعم وإن كنت تريد {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} فالله أعلم. ثم هنا " ثلاثة أقوال " إما أن يقال: الاستثناء واجب فلا يجوز القطع وهذا قول القاضي في عيون المسائل وغيره وإما أن يقال: هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر وإما أن يقال: كلاهما جائز باعتبار وإنما ذكر أن الاستثناء سنة بمعنى أنه جائز ردا على من نهى عنه فإذا قلنا هو واجب فمأخذ القاضي أنه لو جاز القطع على أنا مؤمنون لكان ذلك قطعا على أنا في الجنة لأن الله وعد المؤمنين الجنة ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة لأن من شرط ذلك الموافاة بالإيمان ولا يعلم ذلك إلا الله وكذلك الإيمان إنما يحصل بالموافاة ولا يعلم ذلك. ولهذا قال ابن مسعود: هلا وكل الأولى كما وكل الآخرة. يريد بذلك ما استدل به من أن رجلا قال عنده: إني مؤمن فقيل لابن مسعود هذا يزعم أنه مؤمن قال: فسلوه أفي الجنة هو أو في النار ؟ فسألوه فقال: الله أعلم فقال عبد الله: فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية. " قلت ": ويستدل أيضا على وجوب الاستثناء بقول عمر: من قال إنه مؤمن فهو كافر ومن زعم أنه في الجنة فهو في النار ومن زعم أنه عالم فهو جاهل ولما استدل المنازع بأن الاستثناء إنما يحتاج إليه لمستقبل يشك في وقوعه قال: الجواب إن هنا مستقبلا يشك في وقوعه وهو الموافاة بالإيمان ؛ والإيمان مرتبط بعضه ببعض فهو كالعبادة الواحدة. " قلت ": فحقيقة هذا القول أن الإيمان اسم للعبادة من أول الدخول فيه إلى أن يموت عليه فإذا انتقض تبين بطلان أولها كالحدث في آخر الصلاة والوطء في آخر الحج والأكل في آخر النهار ؛ وقول مؤمن عند الإطلاق يقتضي فعل الإيمان كله كقول مصل وصائم وحاج ؛ فهذا مأخذ القاضي. وقد ذكر بعدها في المعتمد " مسألة

الموافـاة " وهي متصـلة بها وهو أن المـؤمن الـذي علم الله أنه يموت كـافرا ؛ وبـالعكس ؛ هل يتعلق رضا الله وسـخطه ومحبته وبغضه بما هو عليه أو بما يـوافي بـه. والمسـألة متعلقة بالرضا والسـخط: هل هو قـديم أو محـدث ؟ و " المأخذ الثـاني ": أن الاسم عند الإطلاق يقتضي الكمـال ؛ وهـذا غـير معلـوم للمتكلم كما قال أبو العالية: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفـاق على نفسه لا يقـول إن إيمـاني كإيمـان جبريل فإخبـار الرجل عن نفسه أنه كامل الإيمان خبر بما لا يعلمه وهذا معـنى قـول ابن المـنزل: أن المرجئة تقـول إن حسـناتها مقبولة وأنا لا أشـهد بـذلك وهـذا مأخذ يصـلح لوجـوب الاسـتثناء وهـذا المأخذ الثاني للقاضي فـإن المنـازع احتج بأنه لما لم يجز الاسـتثناء في الإسـلام فكـذلك في الإيمـان. قـال: والجـواب أن الإسـلام مجـرد الشهادتين وقد أتى بهما والإيمان أقوال وأعمـال لقولـه {الإيمـان بضع وسبعون بابـا} وهو لا يتحقق كل ذلك منـه. " المأخذ الثـالث ": أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله: {فلا تزكوا أنفسكم} وهذا يصلح للاستحباب وإلا فإخبـار الرجل بصـفته الـتي هو عليها جـائز وإن كانت مدحا وقد يصلح للإيجاب قـال الأثـرم في " السـنة ": حـدثنا أحمد بن حنبل سـمعت يحـيى بن سـعيد يقـول: ما أدركت أحدا من أصحابنا ولا بلغني إلا على الاستثناء قال الأثرم سـمعت أبا عبد الله يسـأل عن الاسـتثناء في الإيمـان ما تقـول فيه ؟ قال: أما أنا فلا أعيبه000(سقط من الأصل مقـدار نصف سـطر) فأسـتثني مخافة واحتياطا ليس كما يقولـون على الشك إنما يسـتثنى للعمل قـال أبو عبد اللـه: قـال اللـه: {لتـدخلن المسـجد الحرام إن شاء اللـه} أي إن هـذا الاسـتثناء لغـير شك وقد قـال النبي صلى الله عليه وسلم {وإنا إن شاء الله بكم لاحقون} أي لم يكن يشك في هذا وقد استثنى وذكر قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم {نبعث إن شـاء الله من القـبر} وذكر قـول النـبي صلى الله عليه وسلم: {إني والله لأرجو أن أكون أخشاكم للـه} قـال هـذا كله تقوية للاسـتثناء في الإيمـان. قلت لأبي عبد اللـه: فكأنك لا تـرى بأسا أن لا يسـتثنى فقـال إذا كـان ممن يقـول: الإيمـان قـول وعمل يزيد وينقص فهو أسـهل عنـدي ثم قـال أبو عبد الله إن قوما تضـعف قلـوبهم عن الاسـتثناء فتعجب منهم وذكر كلاما طويلا تركته. فكلام أحمد يدل على أن الاستثناء لأجل العمل وهـذا " المأخذ الثـاني " وأنه لغـير شك في الأصل وهو يشـبه " الثـالث " ويقتضي أن يجـوز تـرك الاسـتثناء وأما جـواز إطلاق القـول بـأني مـؤمن فيصح إذا عـنى أصل الإيمـان دون كماله والـدخول فيه دون تمامه كما يقـول: أنا حـاج وصـائم لمن

شـــرع في ذلك وكما يطلقه في قولـه آمنت بالله ورســله وفي قولـه: إن كنت تعـني كـذا وكـذا أن جـواز إخبـاره بالفعل يقتضي جــواز إخبـاره بالاسم مع القرينة وعلى هــذا يخــرج ما روي عن صاحب معاذ بن جبل وما روي في حديث الحـارث الـذي قـال " أنا مؤمن حقا " وفي حديث الوفد الـذين قـالوا: " نحن المؤمنـون " وإن كان في الإسنادين نظر.

(ص670)ســئل عن معــنى حــديث النــبي صــلى الله عليه وسلم: {إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خــرج من ذلك العمل عـاد إليه الإيمـان} رواه الترمـذي وأبو داود. وهل يكــون الــزاني في حالة الزنا مؤمنا أو غــير مــؤمن ؟ وهل حمل الحـديث على ظـاهره أحد من الأئمة أو أجمعـوا على تأويله ؟
فأجاب: الحمد لله: الناس في الفاسق من أهل الملة مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم " ثلاثة أقسام ": طرفين ووسط. (أحد الطـــرفين): أنه ليس بمـــؤمن بوجه من الوجـــوه ولا يـــدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الإيمان ثم من هؤلاء من يقول: هو كافر: كاليهودي والنصراني، وهو قـول الخـوارج ومنهم من يقـول: ننزله منزلة بين المنزلـــــــــتين ؛ وهي منزلة الفاسق وليس هو بمـؤمن ولا كـافر وهم المعتزلة وهـؤلاء يقولـون: إن أهل الكبـائر يخلـدون في النـار وإن أحـدا منهم لا يخـرج منها ؛ وهـذا من " مقالات أهل البـدع " الـتي دل الكتـاب والسـنة وإجمـاع الصـحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها قال الله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمـــنين اقتتلـــوا فأصـــلحوا بينهمـــا} - إلى قولـه - {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخـويكم} فسـماهم مؤمـنين وجعلهم إخــوة مع الاقتتـال وبغي بعضـهم على بعض وقـال الله تعـالى: {فتحرير رقبة مؤمنة} ولو أعتق مذنبا أجزأ عتقه بإجماع العلماء. ولهذا يقول علماء السلف في المقدمات الاعتقادية: لا نكفر أحــدا من أهل القبلة بـــذنب ولا نخرجه من الإســـلام بعمل وقد ثبت الزنا والسـرقة وشـرب الخمر على أنـاس في عهد النـبي صـلى الله عليه وسلم ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المســلمين بل جلد هـــذا وقطع هـــذا وهو في ذلك يســتغفر لهم ويقــول: لا تكونــوا أعــوان الشــيطان على أخيكم وأحكـام الإسـلام كلها مرتبة على هـذا الأصـل. (الطـرف الثـاني): قول من يقول: إيمـانهم بـاق كما كـان لم ينقص " بنـاء على أن الإيمان هو مجرد التصديق والاعتقـاد الجـازم وهو لم يتغـير وإنما نقصت شرائع الإسـلام وهـذا قـول المرجئة والجهمية ومن سـلك

سبيلهم وهو أيضا قول مخالف للكتاب والسنة وإجمـاع السـابقين والتـابعين لهم بإحسـان. قـال الله تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} وقال: {إنما المؤمنون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـــوبهم} - إلى قولـه - {أولئك هم المؤمنـــون حقا} وقال: {فـزادهم إيمانا وقـالوا حسـبنا اللـه} وقـال: {لـيزدادوا إيمانا مع إيمانهم} وقال: {فزادتهم إيمانا وهم يستبشـرون}. وقـال النبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان بضع وسبعون شـعبة أعلاها قــول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريــق} {وقــال لوفد عبد القيس: آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمـان بالله ؟ شــهادة أن لا إله إلا الله وأن تــؤدوا خمس ما غنمتم}. وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قـول اللسـان وعمل الجـوارح. فأما قـول القلب فهو التصـديق الجـازم بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر ويـدخل فيه الإيمـان بكل ما جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسلم. ثم الناس في هـذا على أقسـام: منهم من صـدق به جملة ولم يعـرف التفصـيل ومنهم من صـدق جملة وتفصـيلا ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصـديق ومنهم من يغفل عنه ويـذهل ومنهم من استبصر فيه بما قـذف الله في قلبه من النور والإيمان ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جـــازم وهـــذا التصـــديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسـوله وتعظيم الله ورسـوله وتعزير الرسـول وتوقـيره وخشـية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه إلى غــــير ذلك من الأحوال فهـذه الأعمـال القلبية كلها من الإيمـان وهي مما يوجبها التصـديق والاعتقـاد إيجـاب العلة للمعلـول. ويتبع الاعتقـاد قــول اللسان ويتبع عمل القلب الجـوارح من الصـلاة والزكـاة والصـوم والحج ونحو ذلك. وعند هـذا فـالقول الوسط الـذي هو قـول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسـلبون الاسم على الإطلاق ولا يعطونه على الإطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عـاص أو مــؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ويقــال: ليس بمــؤمن حقا أو ليس بصـادق الإيمـان. وكل كلام أطلق في الكتـاب والسـنة فلا بد أن يقترن به ما يبين المراد منه. والأحكام منها ما يـترتب على أصل الإيمـان فقط ؛ كجـواز العتق في الكفـارة وكـالموالاة والموارثة ونحو ذلك ومنها ما يترتب على أصـله وفرعـه: كاسـتحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك. إذا عرفت " هذه القاعدة ". فالذي في الصحيح قولـه صلى الله عليه وسلم: {لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن

ولا يشــرب الخمر حين يشــربها وهو مــؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شــرف يرفع النـاس إليه أبصـارهم فيها حين ينتهبها وهو مـؤمن} والزيــادة الــتي رواها أبو داود والترمــذي صــحيحة وهي مفســرة للرواية المشهورة. فقول السـائل: هل حمل الحـديث على ظـاهره أحد من الأئمة ؟ لفظ مشترك ؛ فإن عنى بذلك أن ظــاهره أن الزاني يصير كافرا وأنه يسلب الإيمان بالكلية فلم يحمل الحديث على هـذا أحد من الأئمة ولا هو أيضا ظـاهر الحـديث لأن قولـه {خــرج منه الإيمــان فكــان فــوق رأسه كالظلــة} دليل على أن الإيمـان لا يفارقه بالكلية فـإن الظلة تظلل صـاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نـوع ارتبـاط. وأما إن عـنى بظـاهره ما هو المفهـوم منه كما سنفسره إن شاء الله فنعم ؛ فإن عامة علماء الســلف يقــرون هـذه الأحـاديث ويمرونها كما جـاءت ويكرهـون أن تتـأول تأويلات تخرجها عن مقصـود رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وقد نقل كراهة تأويل أحــاديث الوعيــد: عن ســفيان. وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهم - وجماعة كثـيرة من العلمـاء ونص أحمد على أن مثل هــذا الحـديث لا يتـأول تـأويلا يخرجه عن ظـاهره المقصـود به وقد تأوله الخطـابي وغـيره تـأويلات مسـتكرهة مثل قولــهم لفظه لفظ الخــبر ومعنــاه النهي: أي ينبغي للمــؤمن ألا يفعل ذلك وقولـهم: المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي وإنما ســاغ ذلك لما بين حاله وحــال من عــدم الإيمــان من المشابهة والمقاربة وقولــهم: إنما عـدم كمـال الإيمـان وتمامه أو شــرائعه وثمراته ونحو ذلك وكل هــذه التــأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظـر. فـالحق أن يقـال: نفس التصـديق المفـرق بينه وبين الكافر لم يعدمه لكن هذا التصـديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقا بأن الله حرم هـذه الكبـيرة وأنه توعد عليها بالعقوبة العظيمة وأنه يــرى الفاعل ويشــاهده ؛ وهو ســبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هـذا الفاعل فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صـدور الفعل منه ومـتى فعل هـذه الخطيئة فلا بد من أحد " ثلاثة أشياء ". إما اضـطراب العقيـدة ؛ بأن يعتقد بأن الوعيد ليس ظـاهره كباطنه وإنما مقصـوده الزجر كما تقولــه: المرجئــة. أو أن هــذا إنما يحــرم على العامة دون الخاصة كما يقولـه الإباحية أو نحو ذلك من العقائد الــتي تخــرج عن الملة. وإما الغفلة والذهول عن التحريم وعظمة الرب وشدة بأســه. وإما فــرط الشــهوة بحيث يقهر مقتضى الإيمــان ويمنعه موجبه بحيث يصـير الاعتقـاد مغمـورا مقهـورا كالعقل في النـائم والسكران وكـالروح في النـائم. ومعلـوم أن " الإيمـان " الـذي هو الإيمان ليس باقيا كما كان ؛ إذ ليس مستقرا ظـاهرا في القلب

واسم المـؤمن عند الإطلاق إنما ينصـرف إلى من يكـون إيمانه باقيا على حاله عـاملا عمله وهو يشـبه من بعض الوجـوه روح النـائم ؛ فإنه سبحانه: يتـوفى الأنفس حين موتها والـتي لم تمت في منامها ؛ فالنـائم ميت من وجه حي من وجه وكـذلك السـكران والمغمى عليه عاقل من وجه وليس بعاقل من وجه فإذا قال قائـل: السـكران ليس بعاقل فـإذا صـحا عـاد عقله إليه كـان صـادقا مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة إذ عقله مسـتور وعقل البهيمة معـدوم ؛ بل الغضـبان ينتهي به الغضب إلى حـال يعـزب فيها عقله ورأيه وفي الأثر {إذا أراد الله نفـاذ قضـائه وقدره سلب ذوي العقول عقولـهم فـإذا أنفذ قضـاءه. وقـدره رد عليهم عقولـهم ليعتـبروا} فالعقل الـذي به يكـون التكليف لم يسلب وإنما سلب العقل الذي به يكون صـلاح الأمـور في الـدنيا والآخـرة. كـذلك الـزاني والسـارق والشـارب والمنتهب لم يعـدم الإيمـان الـذي به يسـتحق ألا يخلد في النـار وبه تـرجى له الشـفاعة والمغفـرة وبه يسـتحق المناكحة والموارثة لكن عـدم الإيمان الذي به يستحق النجـاة من العـذاب ويسـتحق به تكفـير السيئات وقبول الطاعـات وكرامة الله ومثوبته ؛ وبه يسـتحق أن يكون محمودا مرضيا. وهذا يـبين أن الحـديث على ظـاهره الـذي يليق به. والله أعلم.

(ص677) سئل رحمه الله: عن معـنى قولـه صـلى الله عليه وسلم: {لا يدخل الجنة من كـان في قلبه مثقـال ذرة من كـبر} هل هـذا الحـديث مخصـوص بـالمؤمنين أم بالكفـار ؟ فـإن قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشـيء ؛ لأن المؤمـنين يـدخلون الجنة بالإيمان. وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث ؟ فأجاب: لفظ الحديث في الصـحيح: {لا يـدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقـال ذرة من إيمـان} فـالكبر المبـاين للإيمـان لا يـدخل صـاحبه الجنة كما في قولـه: {إن الـذين يسـتكبرون عن عبـادتي سـيدخلون جهنم داخرين} ومن هذا كـبر إبليس وكـبر فرعـون وغيرهما ممن كـان كبره منافيا للإيمـان وكـذلك كـبر اليهـود والـذين أخـبر الله عنهم بقولـه: {أفكلما جـاءكم رسـول بما لا تهـوى أنفسـكم اسـتكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون}. والكبر كله مبـاين للإيمـان الـواجب فمن في قلبه مثقـال ذرة من كـبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويـترك ما حـرم عليه بل كـبره يـوجب له جحد الحق واحتقـار الخلق وهـذا هو " الكـبر " الـذي فسـره النـبي صـلى الله عليه وسلم حيث سئل في تمام الحديث. {فقيل: يا رسول الله الرجل

يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. فمن الكبر ذاك ؟ فقـال: لا إن الله جميل يحب الجمـال الكـبر بطر الحق وغمط النـاس} وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم فمن في قلبه مثقـال ذرة من هـذا يـوجب له أن يجحد الحق الـذي يجب عليه أن يقر به وأن يحتقر النـــاس فيكـــون ظالما لهم معتديا عليهم فمن كان مضيعا للحق الواجب ؛ ظالما للخلـق. لم يكن من أهل الجنة ولا مستحقا لها ؛ بل يكون من أهل الوعيد. فقولـــه: {لا يـــدخل الجنـــة} متضـــمن لكونه ليس من أهلها ولا مسـتحقا لها لكن إن تـاب أو كـانت له حسـنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصـائب كفر بها خطايـاه ونحو ذلك زال ثمـرة هـذا الكـــبر المـــانع له من الجنة ؛ فيـــدخلها أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكـبر من نفسه ؛ فلا يـدخلها ومعه شـيء من الكبر ولهذا قال: من قال في هذا الحديث وغـيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الـذي لا يكـون معه عـذاب ؛ لا الـدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ؛ فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يـدخل النـار. فـإذا تـبين هـذا كـان معنـاه أن من كـان في قلبه مثقـال ذرة من كـبر ليس هو من أهل الجنة ولا يـدخلها بلا عـذاب بل هو مسـتحق للعـذاب لكـبره كما يسـتحقها غـيره من أهل الكبـائر ولكن قد يعـذب في النـار ما شـاء الله فإنه لا يخلد في النـــار أحد من أهل التوحيد وهـــذا كقولـــه: {لا يدخل الجنة قاطع رحم} وقولــه: {لا تـدخلون الجنة حـتى تؤمنـوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتمـوه تحـاببتم ؟ أفشـوا السـلام بينكم} وأمثـال هـذا من أحـاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام في الكفـار وفي المسـلمين. وقـول القائـل: إن المسلمين يدخلون الجنة بالإسلام فيقـال لـه: ليس كل المسـلمين يدخلون الجنة بلا عـذاب بل أهل الوعيد يـدخلون النـار ويمكثـون فيها ما شـاء الله مع كـونهم ليسـوا كفـارا فالرجل الـذي معه شيء من الإيمان وله كبـائر قد يـدخل النـار ثم يخـرج منهـا: إما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسـلم وإما بغـير ذلك ؛ كما قـال صلى الله عليه وسـلم: {شـفاعتي لأهل الكبـائر من أمـتي} وكما في الصحيح أنه قال: {أخـرج من النـار من في قلبه مثقـال ذرة من إيمان} وهكذا الوعيد في قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور وغير هؤلاء من أهل الكبائر ؛ فإن هـؤلاء - وإن لم يكونـوا كفـارا - لكنهم ليسـوا من المسـتحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب. ومذهب أهل السنة والجماعـة: أن فسـاق أهل الملة ليسـوا مخلـدين في النـار كما قـالت الخـوارج

والمعتزلة وليسوا كاملين في الـدين والإيمـان والطاعة ؛ بل لهم حسنات وسـيئات يسـتحقون بهـذا العقـاب وبهـذا الثـواب ؛ وهـذا مبسوط في موضعه والله أعلم.

(ص680) سئل شيخ الإسلام: عن " بدعة المرازقة "
فأجاب: ثم إن جماعات ينتسبون إلى الشيخ " عثمـان بن مـرزوق " ويقولون: أشياء مخالفة لما كـان عليه وهو منتسب إلى مـذهب أحمد وكــان من أصــحاب الشــيخ عبد الوهــاب بن أبي الفــرج الشيرازي وهؤلاء ينتسبون إلى مـذهب الشـافعي ويقولـون أقـوالا مخالفة لمــذهب الشــافعي وأحمد ؛ بل ولســائر الأئمة وشــيخهم هذا من شيوخ العلم والـدين له أسـوة أمثاله وإذا قـال قـولا قد علم أن قول الشـافعي وأحمد يخالفه وجب تقـديم قولــهما على قولـه مع دلالة الكتاب والسنة على قول الأئمة ؛ فكيف إذا كان القـول مخالفا لقولـه ولقـول الأئمة وللكتـاب والسـنة. وذلك مثل قولـهم: ولا نقول قطعا ونقول نشـهد أن محمـدا رسـول الله ولا نقطع ونقول: إن السـماء فوقنا ولا نقطع ويـروون أثـرا عن علي وبعضهم يرفعه أنه قال: لا تقل قطعا وهـذا من الكـذب المفـترى باتفـاق أهل العلم ولم يكن شـيخهم يقـول هـذا بل هـذه بدعة أحـــدثها بعض أصـــحابه بعد موته وإذا قيل لواحد منهم: ألا تقطع قال: إن الله قادر على أن يغير هذه الفـرس فيظن أنه إذا قـال قطعا أنه نفي لقدرة الله على تغيير ذلك وهـذا جهل فـإن هـذه الفرس فرس قطعا في هذه الحال والله قـادر على أن يغيرهـا. وأصل " شـبهة هـؤلاء " أن السـلف كـانوا يسـتثنون في الإيمـان فيقول أحدهم: أنا مؤمن - إن شاء الله - وكانت ثغور الشام: مثل عسقلان قد سكنها محمد بن يوسف الفريـابي - شـيخ البخـاري - وهو صـاحب الثـوري وكـان شـديدا على المرجئة وكـان يـرى " الاستثناء في الإيمان " كشيخه الثوري وغيره من السلف. والنـاس لهم في الاسـتثناء " ثلاثة أقـوال ": منهم من يحرمه كطائفة من الحنفية ويقولــون من يســتثني فهو شــكاك. ومنهم من يوجبــه: كطائفة من أهل الحديث. ومنهم من يجـوزه - أو يسـتحبه - وهـذا أعدل الأقوال فإن الاستثناء له وجه صـحيح فمن قـال: أنا مـؤمن إن شاء الله وهو يعتقد أن الإيمان فعل جميع الواجبـات ويخـاف أن لا يكـون قائما بها فقد أحسن ولهـذا كـان الصـحابة يخـافون النفــاق على أنفســهم قــال ابن أبي مليكــة: أدركت ثلاثين من أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم كلهم يخـاف النفـاق على نفسه ومن اعتقد أن المؤمن المطلق هو الـذي يسـتحق الجنة ؛

فاستثنى خوفا من سوء الخاتمة فقد أصاب وهذا معنى ما يروى عن ابن مسعود أنه قيل لـه: عن رجل أنت مـؤمن ؟ فقـال: نعم فقيل له أنت من أهل الجنة فقـال أرجو فقـال: هلا وكل الأولى كما وكل الثانية ومن استثنى خوفا من تزكية نفسه أو مدحها أو تعليق الأمور بمشـيئة الله فقد أحسن ومن جـزم بما يعلمه أيضا في نفسه من التصـديق فهو مصـيب. والمقصـود أن أصل شـبهة هـؤلاء " الاسـتثناء في الإيمـان " كما عليه أهل ثغر عسـقلان وما يقـرب منها وعامة هـؤلاء جـيران عسـقلان ثم صـار كثـير منهم يسـتثني في الأعمـال الصـالحة فيقـول: صـليت إن شـاء الله وهو يخـاف أن لا يكـون أتى بالصـلاة كما أمر وصـنف أهل الثغر في ذلك مصـنفا - وشـيخهم ابن مـرزوق - غايته أن يتبع هـؤلاء ولم يكن هو ولا أحد قبله من أهل العلم يمتنعـــون أن يقولـــوا: لما يعلم أنه موجـود هـذا موجـود قطعا وقد نقل بعض الشـيوخ أنه كـان يسـتثني في كل شـيء وكأنه يسـتثني - والله أعلم - في الخبر عن الأمـور المسـتقبلة [لقولـه تعـالى] {لتـدخلن المسجد الحـرام إن شـاء اللـه} وقولـه صـلى الله عليه وسـلم {وإنا إن شـاء الله بكم لاحقـون ؟}. والـواجب موافقة جماعة المسـلمين فإن قول القائل: قطعا بذلك مثل قولـه أشهد بذلك وأجزم بـذلك وأعلم ذلك ؛ فإذا قال: أشـهد ولا أقطع ؛ كـان جـاهلا ؛ والجاهل عليه أن يرجع ؛ ولا يصر على جهله ؛ ولا يخالف ما عليه علماء المسـلمين ؛ فإنه يكـون بـذلك مبتـدعا جـاهلا ضـالا. وكـذلك من جهلهم قولـــهم إن الرافضي لا يقبل الله توبته ؛ ويـــروون عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {سب أصـحابي ذنب لا يغفــر} ويقولــون: إن سب الصـحابة فيه حق لآدمي فلا يسـقط بالتوبة ؛ وهذا باطل لوجهين: (أحـدهما) أن الحـديث كـذب باتفـاق أهل العلم بالحديث وهو مخالف للقرآن والسنة والإجمـاع ؛ فـإن الله يقـول في آيـتين من كتابـه: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وبهذا احتج أهل السـنة على أهل البدع الذين يقولون: لا يغفر لأهل الكبـائر إذا لم يتوبـوا وذلك أن الله قال: {قل يا عبادي الـذين أسـرفوا على أنفسـهم لا تقنطـوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} وهذا لمن تاب فكل من تـاب تـاب الله عليه ؛ ولو كـان ذنبه أعظم الـذنوب وقـال: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء} فهــذا في حق من لم يتب. (الثــاني) أن الحــديث لو كـــان حقا فمعنـــــاه أنه لا يغفر لمن لم يتب منه فإنه لا ذنب أعظم من الشرك والمشرك إذا تاب غفر الله له شـركه باتفـاق المسـلمين كما قال تعالى: {فـإن تـابوا وأقـاموا الصـلاة وآتـوا الزكـاة فخلـوا

سبيلهم} وفي الأخرى {فإخوانكم في الـدين} ومعلـوم أن الكـافر الحـربي إذا سب الأنبيـاء ثم تـاب تـاب الله عليه بالإجمـاع فإنه كـان مسـتحلا لـذلك وكـذلك الرافضي هو يسـتحل سب الصـحابة فإذا تبين له أنه حرام واستغفر لهم بدل ما كـان منه بـدل الله سـيئاته بالحسـنات وكـان حق الآدمي في ذلك تبعا لحق الله ؛ لأنه مستحل لذلك ولو قدر أنه حق لآدمي لكان بمنزلة من تاب من القذف والغيبة وهذا في أظهر قولي العلمـاء لا يشـترط في توبته تحلله من المظلوم بل يكفي أن يحسن إليه في المغيب ؛ ليهـدم هـذا بهـذا. ومن البـدع المنكـرة تكفـير الطائفة غيرها من طوائف المسلمين واسـتحلال دمـائهم وأمـوالهم كما يقولـون: هـذا زرع البدعي ونحو ذلك فإن هذا عظيم لوجهين: (أحـدهما) أن تلك الطائفة الأخـــرى قد لا يكـــون فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفـرة لها ؛ بل تكـون بدعة المكفـرة أغلظ أو نحوها أو دونها وهـذا حـال عامة أهل البـدع الـذين يكفر بعضـهم بعضا فإنه إن قدر أن المبتدع يكفر كفر هؤلاء وهؤلاء وإن قدر أنه لم يكفر لم يكفر هـؤلاء ولا هـؤلاء فكـون إحـدى الطـائفتين تكفر الأخـــرى ولا تكفر طائفتها هو من الجهل والظلم وهـــؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شـيعا لست منهم في شـــيء}. (والثـــاني): أنه لو فـــرض أن إحـــدى الطـائفتين مختصة بالبدعة لم يكن لأهل السـنة أن يكفـروا كل من قال قولا أخطأ فيه فـإن الله سـبحانه قـال: {ربنا لا تؤاخـذنا إن نســينا أو أخطأنـــا} وثبت في الصـــحيح {أن الله قـــال: قد فعلت} وقال تعالى: {وليس عليكم جناح فيما أخطـأتم بـه} وروي عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إن الله تجـاوز لي عن أمـــتي الخطأ والنســيان} وهو حـــديث حسن رواه ابن ماجه وغيره. وأجمع الصحابة وسـائر أئمة المسـلمين على أنه ليس كل من قـال قـولا أخطأ فيه أنه يكفر بـذلك وإن كـان قولـه مخالفا للسنة فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع ؛ لكن للناس نــزاع في مسائل التكفير قد بسطت في غير هـذا الموضـوع. و (المقصـود) هنا أنه ليس لكل من الطوائف المنتسبين إلى شيخ من الشـيوخ ولا إمام من الأئمة أن يكفروا من عداهم ؛ بل في الصحيح عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إذا قـال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما} وقـال أيضـا: {المسـلم أخو المسـلم لا يظلمه ولا يسـلمه كل المســلم على المســلم حـرام دمه وماله وعرضه}. وقال: {لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاســدوا وكونــوا عبــاد الله إخوانــا} وقــال: {مثل المؤمــنين في تــوادهم وتـراحمهم وتعـاطفهم: كمثل الجسد الواحد إذا اشـتكى منه عضو

تداعى له سائر الجسد بـالحمى والسـهر}. وليس للمنتسـبين إلى ابن مــرزوق أن يمنعــوا من مناكحة المنتســبين إلى العــوفي ؛ لاعتقادهم أنهم ليسوا أكفاء لهم بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان من هـؤلاء وغـيرهم كما قـال تعـالى: {يا أيها النــاس إنا خلقنــاكم من ذكر وأنــثى وجعلنــاكم شــعوبا وقبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكم} وفي الصـحيح {أن النـبي صلى الله عليه وسـلم سـئل: أي النـاس أكـرم ؟ قـال أتقـاهم}. وفي الســنن عنه أنه قــال: {لا فضل لعــربي على عجمي ولا لعجمي على عـربي ولا لأبيض على أسـود ولا لأسـود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم , وآدم خلق من تراب}.